جامعة الأزهر الشريف
كلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم البلاغة والنقد

أسلوب المدح والذم فى الذكر الحكيم

(دراسة بلاغية)

تأليف
د/ إبراهيم صلاح الهدهد

دار الاتحاد التعاونى للطباعة
ت : ٢٩٥٦٨١٠
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٩٨ / ١٦١٧٤
٩٨/١١/٢٦
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977 - 224 - 067 - 1



مقدمة

اللهم إنى أحمدك حمد الشاكرين ، وأسألك سؤال الضارعين ألا تجعل عملى إلا إليك ، وأن تصرف وجهى عن الدنيا إليك ، اللهم إنى أطمع فى رضاك ، وأخشى سخطك ، وأرغب فى جنتك ، وأخشى عذابك ، اللهم اكتب لى عندك بما حاولته فى فقه بلاغة كتابك - أجرا ، ولا تحمل على فيما قصرت فيه إصرا ، وادفع عنى شبهة الرياء ، وقنى شر التفاخر وشر نفسى ، واجعل عملى هذا نوراً فى قبرى ، ومغفرة لى ولوالدى الأمين ، ولأهلى وولدى ولمشايخى وللمؤمنين ، وصل يا رب على خير خلقك سيدنا محمد صلاة تبلغنا شفاعته ، واكتب لنا يا رب محبته ، واجعلنا يا رب ممن تأثر خطاه، وتقفى مسعاه وبعد .

فإن بلاغة القدماء اليوم تداعت عليها الأقلام ، وتبارت عليها السهام ، فمن داع إلى وأدها ، ومن هادم لصروحها ، ومن قائل لا تلائم عصرها أولئك العابدون لأذيال الغرب ، القائمون فى محاريبهم ، المتبتلون بأذكارهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكثيرا ما دعانى هذا الذى ذكرته أن أزور كلاما فى غثاء سيلهم مما يسمى بالأسلوبية ، والبنيوية ، والتفكيكية ، وكلها مناهج نقدية يأكل بعضها بعضا ، كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وهدمت صرحها ، وبورت سعيها ، وهذا شأن كل غثاء ، لأن الزبد يذهب جفاء ، وما ينفع الناس يمكث فى الأرض ، وهذا حق كله ، وواقع كله .

البنيويون يهاجمون من التفكيكيين ، وكل حزب بما لديهم فرحون فهى أماثل تلائم عصرا ما ثم تقبر وتزول ، ونحن فى بلاد المسلمين نحاول إحياء مواتهم ، وبث الحياة فى رفاة ما خلف الغربيون ، لأن أمة المسلمين ابتليت فى زماننا بقوم هم أشد عداوة ، وأقوى سلطانا فى محاربة تراث المسلمين من الغربيين المستشرقين ، زرع المستشرقون فى كل بلد عربى طائفة من المستغربين وهم أعضاء شائهة فى جسد الأمة ، لا تكف عن محاربة أصول الجسد هذا ، ولا تنام عن مدافعته لتمسخ وجه تراث الأمة ، وتنشئ جيلا من المسلمين لا يعرف عن إرث أمته إلا أنه إرث متخلف ، إرث يرفل فى ذيل القديم ، إرث لا عمل له إلا نبش قبور المجلدات التى لا نفع فيها ، وهذا وربك واقع مؤلم وشر مستطير يخرب عقل شباب الأمة ، ولهم منابر يرتقونها ، ومناصب يقودون فيها يحولون بما مكنوا بين شباب الأمة وتراث أسلافها ،وأمجاد آبائها.

وللمسلمين مناهج فى الفكر ، ونتائج تفكير تبهر عقول الغرب ، ولا يزالون من عقول أئمتنا إلى يوم الناس هذا فى أمر عجيب ، من حيث دقة البحث ، وصرامة المنهج ، وعمق الاستنباط ، وتأسيس المعارف ، وآداب العلم ، من أمانة ، واحترام لمذاهب الغير فى الاستنباط ، يرى ذلك ويبصره كل من راقب وثب عقول أئمتنا فى شتى المعارف ، ولاحظ تفكيرهم ، وتابع مسيرتهم .

ولو قرأت ما يحاول المستغربون إحلاله محل تراث المسلمين لما انقضى منك عجب تراهم مثلا يقولون (الانحراف النصى) أو (انكسار النص) أو غير ذلك من مصطلحات تبهرك ، حتى يسمعها الدارسون فى القديم ، فيعلموان أن الزمان تجاوزهم وتخال ـ بسماع ذلك وقتها ـ أنك تعيش فى خيمة فى

الصحراء، وأنهم يسكنون القصور ، والأبنية المشيدة ، وعندما يدفعك حب الارتقاء كما ارتقوا إلى قراءة ما سمعت ، تحس وقتها أنك تقبض على هواء ، وترقم على ماء لأن ما سموه بالانحراف النصى منه ما يسمى عند البلاغيين القدماء جدا كما يسمونهم ، أو الأموات كما يعلمون تلاميذهم ، يسمى عند أئمتنا بالالتفات ، وبخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وغير ذلك مما يستلفت انتباه القارئ ويجذبه جذبا ليلقى إليه معنى ما ، فيسمون بذلك سادة الزمان ، وقواد عجلته وأحياء العصر ، يسمونه بالانحراف ، لأنهم يعتقدون أن الكاتب انحرف بالنص هذه الانحرافة ، وانكسر هذه الانكسارة فكان لها أثر بالغ على القارئ والناقد والمحلل !!

قل لى بربك ما هذه المصطلحات أما الانحراف فتحس من سماعه أنك فى خمارة أو بين شمامين ، أو فى سجن للمنحرفين ، ما هذا يا خلق الله ؟! وأما الانكسار فتحس من سماعه أنك فى مستشفى للعظام ، أو أنك فى قسم الهندسة المعمارية ، أو أن من كتبوا ذلك يعملون فى المقاولات !!

وكنت على أن أزور كلاما فى «مناهج النقد عند المستغربين فى مهب الريح» غير أننى وجدت عجلة الزمان تطحنهم فتموت البنائية ، وتحيا التفككية ثم تموت ، وتتناقص المناهج ، وهلاكها أسرع من بقائها ، وذلك شأن غثاء السيل ، فنترك ذلك يأكل بعضه بعضا ، ونحاول نحن أن نعمل كما يعملون ، وأن نناضل من أجل إظهار الحق ، ولو نصف ما يجاهدون هم من أجل باطلهم .

وما ذكرته نفثة مصدور مما يرى من اللعب بعقول الأمة ، آثرت تسجيله فى التقديم لهذا البحث ، إشارة لما ينبغى أن يكون عليه الباحثون ، من الدأب

والعمل ، والجد والاجتهاد .

هذا ، ولإلفى بمحاولات فى فقه بلاغة الذكر الحكيم ، أيقنت يقينا لا يخدشه شئ أن ما أوجزه البلاغيون ، وما أشاروا إليه دون كشف وبيان ، شققه المفسرون ، ووسعوا آفاقه وفتحوا أبوابه ، وهذا الأسلوب موضوع البحث من الموضوعات التى ألمح إليها البلاغيون إلماحة خاطفة ، وهم يذكرون الإنشاء الغير الطلبى ، حيث قالوا : ومن الإنشاء الغير الطلبى القسم والمدح والذم . . . إلى آخره ، دون أن يتناولوا شواهد لذلك ، أو يذكروا أغراضا ، وما قصروا ، ولكن عملوا ما وسعهم الوقت ، وما أسعف به الجهد ، وبقى على علماء كل جيل متابعة العمل ، وإنبات المسائل .

أما المفسرون فقد ذكروا فى هذا الباب كلاماً ، وأشاروا إلى لطائف ونكات تكتب بماء التبر لا بالحبر ، وقد حاولت فى إبصار تلك اللطائف ، أن أبصر لطائف أخر فيما لم يشيروا إليه ، فوجدت لهذا الأسلوب مقاصد عامة ، ومقاصد خاصة ، ولطائف لا تتناهى شأن البلاغة القرآنية فى كل لفظ ، ودأبها فى كل أسلوب .

وقد مضيت فى تقسيم مواضع هذا الأسلوب فى الذكر الحكيم على الجمع بين طريقتين ، ناظرا إلى طبيعة الأسلوب ، وطبيعة السياق ، أما طبيعة الأسلوب فهى تحتم على أن يكون فى فصلين الفصل الأول فى : أسلوب المدح الفصل الثانى فى أسلوب الذم ، أما طبيعة السياق ، فكل مجموعة من الآيات تنتظمها سياقات متقاربة جمعتها فى خيط متتابع ، من بعد التمهيد لهذين الفصلين بما يكشف عن دلالة هذا الأسلوب لغة ونحواً وبلاغة ، وما له بموضوع البحث اعتلاق من قريب أو من بعيد ، محاولا فى كل ذلك الاتكاء

على مقالات الأئمة ، والاحتياط الشديد فى فهم كلامهم ، وفقه النص الحكيم، ما وسعنى الجهد .

وقد اعتمدت المنهج التحليلى طريقا تمضى الدراسة عليه ، إذ هو المنهج الملائم لمثل هذا البحث ، والله من وراء القصد ، وهو وحده يرزق الفهم ، ويعفو ويصفح ، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

المؤلف

إبراهيم صلاح الهدهد

تمهيد
نعم وبئس عند اللغويين

اتفق اللغويون على أمور فى نعم وبئس :

أولها : أن (نعم) كلمة مدح ، و (بئس) كلمة ذم .

ثانيهما : أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان ، وقد عللوا عدم تصرفهما بأنهما منقولان من (نعم) بفتح النون وكسر العين ، و(بئس) بفتح الباء وكسر الهمزة . وأن نقلهما جعلهما يشبهان الحروف فى عدم التصرف .

ثالثهما : أنهما لا يعملان فى اسم علم ، وإنما يعملان فى اسم منكور دال على الجنس ، وعللوا ذلك بأن (نعم) مستوفية لجميع المدح ، و(بئس) مستوفية لجميع الذم ، فقولنا : نعم زيد ، معناه : أنه لو فضل الرجال رجلا رجلا فضلهم زيد [١].

وقد نقل البقاعى عن أبى طالب العبدى فى شرح الإيضاح : أن نعم وبئس للمبالغة ، فالمراد بهما التناهى فى المدح والذم ، ولاختصاصهما بهذا المعنى منعتا التصرف ، واقتصر بهما على المعنى ؛ لأن المدح والذم إنما يكونان متعلقين بما ثبت واستقر ، لا يمدح الإنسان بما لم يقع منه [٢].

وهذا يعنى أن لنعم وبئس تميزا خاصا من حيث الدلالة ، وأن هذه الأمور اللغوية هى التى تجعل التعبير بهما فى مقامى المدح والذم أقوى دلالة وأثرى تعبيرا ، بل هما أهدى سبيلا عند إرادة المبالغة فى المدح أو الذم من التعبير بالفعلين (أمدح) و (أذم) بل إن دلالتهما تلك المتسعة أوجبت أن يكون فاعلهما على طريقتهما فى العموم والشيوع .

---

(١) انظر لسان العرب ، الصحاح ، ومختار الصحاح ، والمصباح المنير ، مقاييس اللغة ، والوسيط ، والمفردات للراغب الأصفهانى مادتى (بئس) و (نعم) .

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ١/٥٢٦ .

نعم وبئس عند النحاة

النحاة على فريقين من كون (نعم وبئس) فعلين أو اسمين .

البصريون : على أنهما فعلان ماضيان لا يتصرفان وأدلتهم على ذلك :

١ ـ أن الضمير يتصل بهما على حد اتصاله بالأفعال ، فإنهم قالوا : نعما رجلين ، ونعموا رجالا ، كما قالوا : قاما وقاموا .

٢ ـ أن تاء التأنيث الساكنة التى لم يقلبها أحد من العرب هاء فى الوقف تتصل بهما كما تتصل بالأفعال نحو : نعمت المرأة .

٣ ـ أنهما مبنيان على الفتح كالأفعال الماضية ، ولو كانا اسمين لما بنيا على الفتح من غير علة .

الكوفيون : على أنهما اسمان ولهم على رأيهم أدلة :

١ ـ دخول حرف الجر عليهما ، وهو مما يختص بالأسماء ، واستدلوا لذلك بما جاء فى كلام العرب وأشعارها من مثل قولهم : نعم السير على بئس العير .

٢ ـ أنها وردت مناداة ، فالعرب تقول : يا نعم المولى ويا نعم النصير ، والنداء من خصائص الأسماء .

٣ ـ أنه لا يحسن اقتراف الزمان بهما كسائر الأفعال ، فلا يحسن أن تقول : نعم الرجل أمس .

٤ ـ أنهما لا يتصرفان .

٥ ـ أن نعم قد استعملت فى كلام العرب على وزن ليس من أوزان

الأفعال : (نعيم الرجل زيد) .

رد البصريين أدلة الكوفيين .

أولاً : أن حرف الجر إنما دخل عليهما على تقدير الحكاية ، وحروف الجر تدخل على تقدير الحكاية ، وقد جاء حرف الجر داخلاً على ما لا خلاف فى أنه فعل ، ولم يقل أحد حينئذ بأنه اسم كما فى قول الشاعر :

والله ما ليلى بنام صاحبه

فالتقدير : والله ما ليلى بليل نام صاحبه .

ثانيا : أن المقصود بالنداء محذوف للعلم به ، والتقدير فيه : يا الله نعم المولى .

ثالثا : أنهما إنما امتنعتا من اقتران الزمان (الماضى والمستقبل) بهما وسلبتا التصرف ؛ لأن (نعم) موضوعة لغاية المدح ، و (بئس) موضوعة لغاية الذم ، فجعل دلالتهما على الزمان مقصورة على الآن ؛ لأنك إنما تمدح وتذم بما هو موجود فى الممدوح والمذموم ، لا بما كان فزال ، ولا بما سيكون فى المستقبل .

رابعا : أما استعمال نعم على نعيم فإنها رواية شاذة ، ولئن صحت فليس فيها حجة ؛ لأن هذه الياء نشأت عن إشباع الكسرة لأن الأصل فى نعم ـ بكسر النون وتسكين العين نعم بفتح النون وكسر العين ، وأشبعت الكسرة فنشأت الباء ، وهذا كثير فى كلامهم .

والبصريون لم يردوا على استدلال الكوفيين على اسمية نعم وبئس بالجمود ، لأنه أضعف من أن يرد عليه ، وذلك لكثرة الأفعال الجامدة فى اللغة من مثل ليس وعسى وغير ذلك ، ولم يقل أحد بأنها أسماء .

ولابن عصفور طريقة أخرى فى تحرير الخلاف ، فقد ذكر أنه لم يختلف أحد من البصريين والكوفيين على أن (نعم وبئس) فعلان ، وإنما الخلاف بينهما فى الفعلين بعد إسنادهما إلى الفاعل فذهب البصريون إلى أنهما فعلان كما كانا قبل الإسناد .

وذهب الكسائى إلى أن قولك : نعم الرجل ، ومثله قولك : بئس الرجل اسمان محكيان صارا اسما واحدا ، بمنزلة قولك : تأبط شرا فقولك : بئس الرجل قد صار اسم جنس واحد بمنزلة قولك :المذموم .

وذهب الفراء إلى أن الأصل فى قولك : نعم الرجل زيد رجل نعم الرجل زيد ، وحذف الموصوف ، وهو رجل ، وأقيمت الصفة مقامه ، وهى جملة نعم الرجل ، فأخذت الصفة مقام الموصوف ، وأعرب الإعراب الذى كان للموصوف .

وقد رُد مذهبا الكسائى والفراء بأنه لو صح ما ذهبا إليه من التراكيب لجاز أن يقع هذا المركب موقع المبتدأ ، وأن يخبر عنه بما تشاء من الأخبار ، فتقول: نعم الرجل قائم ، ولكان يصح أن يقع اسما للنواسخ ، كما هو شأن كل مبتدأ، لكنا وجدناهم يلتزمون صورة واحدة من الكلام ، فيقولون : نعم الرجل زيد ، ويقولون : بئس الرجل عمرو ، فدل ذلك على أنهم لم يجعلوا هذا المركب اسما واحدا هو مبتدأ [(١)].

نخلص من هذا إلى أن أصح المذاهب أن (نعم وبئس) فعلان ، وطريقة البصريين هى الطريقة المشهورة .

---

(١) انظر أسرار العربية لابن الأنبارى ٣٦ : ١٠٣ والإنصاف ١/ ٩٧ : ١٢٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٢٧٠ : ٢٧٢ ، عدة السالك ٣/ ٢٧٠ ، ٢٧١ .

أركان هذا الأسلوب

أسلوب المدح والذم له طريقته التى يمتاز بها من غيره على النحو التالى :

١ ـ فعل : وهم نعم أو بئس ، وهما فعلان جامدان غير متصرفين مجردان من الزمان ، وهى خصيصة لهذا الأسلوب ، إذ لا توجد فى العربية جملة فعلية مجردة من الزمان .

٢ ـ فاعل : وللنحاة فى فاعل نعم وبئس شروط تتناسب ودلالتهما وما سيقتا له فى كلام العرب . ففاعلها يكون أحد الأنواع التالية :

أ ـ المعرف بأل الجنسية ، وعللوا لذلك بأن نعم وضعت للمدح العام وبئس للذم العام ، خص فاعلهما باللفظ العام ، وليدل ذلك على أن الممدوح والمذموم مستحق للمدح والذم فى ذلك الجنس ، فالمدح العام يشمل فضائل الجنس كلها مبالغة ، وكذلك الذم العام .

ب ـ المضاف إلى المعرف بأل .

جـ ـ المضاف إلى المضاف إلى المعرف بأل .

د ـ الضمير المستتر وجوبا بشرط أن يكون ملتزما الإفراد والتذكير ، وعائدا على تمييز بعده ، يفسر ما فى هذا الضمير من الغموض والإبهام ، وعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة من خصوصيات هذا الأسلوب ، كذلك لابد من مطابقة هذا الضمير للمخصوص بالمدح أو الذم وهذا يعنى أنك تسند الفعل الواحد إلى الفاعل مرتين ، مرة وهو فاعل ومرة أخرى ، وهو مخصوص ، كذلك اشترطوا أن يكون التمييز صالحا لقبول أل المعرفة ، فلا يصلح أن يكون من الكلمات المتوغلة غالبا فى الإبهام ، مثل كلمة غير ، ومثل، وشبه .

هـ ـ كلمة (ما) أو (من) نحو : نعم ما يقول الحكيم المجرب ، وهذا على غير طريقة من يعرب (ما) تمييزا والفاعل ضمير مستتر تفسره (ما) .

و ـ الذى (الاسم الموصول) .

ز ـ النكرة المضافة ، أو غير المضافة ، والنوعان الأخيران وهما (الذى والنكرة أقل) الأنواع استعمالا وسموا بلاغيا مع جوازهما .

٣ ـ المخصوص بالمدح أو الذم : وعلامته أن يصلح وقوعه مبتدأ خبره الجملة الفعلية التى قبله مع استقامة المعنى ، ويشترط فى هذا المخصوص أن يكون معرفة أو نكرة مختصة بوصف ، أو إضافة أو غيرهما .

من وسائل التخصيص ، وهو أن يكون أخص من الفاعل ، لا مساويا له ولا أعم منه ، وأن يكون مطابقا له فى المعنى ، فيكون مثله فى مدلوله تذكيرا، وتأنيثا ، وإفرادا ، وتثنية ، وجمعا ، وأن يكون متأخرا عن الفاعل ، فلا يتوسط بينه وبين فعله ، ويجوز تقدمه على الفعل والفاعل معا ، كما يجب تأخره عن التمييز إذا كان الفاعل ضميرا مستترا له تمييز ، أما إذا كان الفاعل اسما ظاهرا فيجوز تقديم المخصوص على التمييز وتأخيره ، وإذا كان المخصوص مؤنثا جاز تذكير الفعل وتأنيثه ، وإن كان الفعل مذكرا فالتذكير فى هذه الحالة أحسن ليطابق الفاعل .

أحكام المخصوص :

أولا : يجوز حذفه إن تقدم على جملته لفظ يدل عليه بعد حذفه ، ويغنى عن ذكره متأخرا ، ويمنع اللبس والخفاء فى المعنى ، ويسمى هذا اللفظ (المشعر بالمخصوص) سواء أكان صالحا لأن يكون هو المخصوص ، أم غير صالح .

ثانيا : فى المخصوص إعرابات مشهورات . **أحدهما** : أن يكون مبتدأ مؤخرا ، والجملة الفعلية التى قبله خبر عنه . **ثانيها** : أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف وجوباً . **ثالثها** : أن يكون مبتدأ خبره محذوف وجوبا تقديره : الممدوح أو المذموم .

هذه هى الأوجه الثلاثة المشهورة ، وهناك وجه رابع لا حذف فيه ولا تقدير ، وهو إعرابه بدلا من الفاعل ، وهو مهجور عند العلماء ، ويرى بعض المحدثين ألا يقدر المخصوص عند حذفه وحجته فى ذلك أنه تكلف وتصنع[1] دون أن يشرح ولا يفصل .

وقد رجح العلماء الرأى القائل بإعرابه مبتدأ مؤخرا ، وهو مذهب سيبويه لأنه يحذف فى الغالب ، وكثرة حذفه مما يستدل به لمذهبه . أما على إعرابه مبتدأ لخبر محذوف ، أو العكس ، فيترتب على هذا الإعراب حذف الجملة بأسرها ، وحذف المفرد أسهل من حذف الجملة ، ومذهب سيبويه هو الذى تسير عليه هذه الدراسة [2]. لأنه أشبه بمساقات الأسلوب وجريانه فى تأكيد المدح أو الذم ، وكذلك أيضا لسهولته ويسره .

---

(١) من أساليب القرآن د. السامرائى /٩٦ .

(٢) انظر أسرار العربية لابن الأنبارى / ١٠٤ ، الإنصاف ١/ ١٢٠ : ١٢٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٢٨٠ ، دراسات لأسلوب القرآن د. عضيمة القسم الثالث مج١٠/ ٣٥٥.

الأفعال الجارية مجرى (نعم وبئس)

القاعدة عند جمهور النحاة أن كل فعل ثلاثى صالح للتعجب منه يجوز استعماله على (فعل) بضم العين ، إما بالأصالة كـ (ظرف ، وشرف) أو بالتحويل كـ (ضرب) و (فهم) ، ثم يجرى حينئذ مجرى (نعم وبئس) فى إفادة المدح وَالذم ، وفى حكم الفاعل ، وحكم المخصوص ، تقول فى المدح : فهم الرجل زيدٌ ، وفى الذم : خبث الرجل عمرو ، ومن أمثلته «ساء» فإنه فى الأصل سوأ بالفتح ، فحول إلى فعل بالضم ، فصار قاصرا ، ثم ضمن معنى بئس ، فصار جامدا قاصرا ، محكوما له ولفاعله بما لنعم وبئس ، ولك فى فاعل فعل المذكور أن تأتى به اسما ظاهرا مجردا من أل ، وأن تجره بالباء وأن تأتى به ضميرا مطابقا .

وقد اشترطوا فى (فعل) أن يتضمن معنى التعجب ، وذلك لكونه بمعنى (أفعل به) نحن ظرف ، أى : أظرف به ، وقد ذكروا أنه يكثر استغناء فاعله عن الألف والام ، كما أنه يضمر فاعل الفعل المذكور كثيرا على وفق ما قبله ، ولم يجز ذلك فى (نعم وبئس) وذلك لعدم عراقته فى المدح والذم ، وكونه كفعل التعجب معني [1].

والظاهر أن السياق ذو أثر بالغ فى تحديد دلالة الأفعال التى على وزن (فَعُل) محولة كانت أم أصلية ، لأنها بهذه الحالة يمكن أن تعامل معاملة الأفعال المتصرفة ، ويمكن أن تفيد معنى التعجب ، ويمكن أن تجرى مجرى (نعم وبئس) ، وعليه فقد دخلت السياقات أفعالا محولة فى موضوع بحثنا ،

---

(١) التسهيل لابن مالك / ١٢٨ ، شرح الكافية ٢/ ٢٩٦ ، أوضح المسالك ٣/ ٢٨٠ ، ٢٨١ دراسات لاسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/ ٣٦٦ وما بعدها النحو الوافى ٣/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

وأخرجت أفعالا أخرى .

الفرق بين دلالة (نعم وبئس) وما جرى مجراهما :

ذكر بعض أهل العلم كلاما سديدا فى التفريق بين (نعم وبئس) وما جرى مجراهما ، وخلاصة قوله : أن الفعل الثلاثى فى صيغته الجديدة الناشئة من التغيير يؤدى ثلاثة أمور مجتمعة .

أولا : المعنى اللغوى الخاص بالفعل .

ثانيا : يزاد على المعنى الخاص معنى المدح والذم حسب الدلالة الأصلية.

ثالثا : إفادة التعجب فى حالتى المدح والذم ، والمدح والذم هنا خاصان لأنهما يقتصران على المعنى اللغوى للفعل ، وهذا المعنى معين محدود ولهذا يكون المدح به أو الذم به خاصا مع إفادة التعجب فى كل حالة فلا إهمال للمعنى الخاص الأساسى للفعل .

إذن لا تعميم ولا شمول ولا خلو من التعجب فى الأفعال الجارية مجرى (نعم وبئس) فالأسلوب هنا باشتماله على الأمور الثلاثة السالفة مختلف عنه مع (نعم وبئس) لأن معناهما المدح والذم العامين الشاملين الخاليين من إفادة التعجب ، وإنما يقوم الفعل الثلاثى بتأدية معناها الخاص مع تلك الزيادة فى الدلالة [1].

وهو رأى جيد مؤسس على الدلالة اللغوية لكل فعل ، والتفريق بين ما هو أصل فى الأسلوب ، وما هو فرع أو محمول ، وهذا يعنى أن المقامات هى التى تقتضى أساليب معينة ، فمقام استخدام (ساء) غير مقام استخدام (بئس)،

---

(١) النحو الوافى ٣/ ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

ومقام استخدام (كبر) يغاير مقام استخدام (ضعف) وهكذا يبحث عن التناسب بين الأساليب والمقامات ، وقرائن الحال والسياق .

وقد أبعد أحد الباحثين إذ ذكر أن دلالة الذم فى (ساء) إنما جاءت من معنى الفعل اللغوى ، واستدل لذلك بأن مقابله (طاب) وهو استدلال غير قوى لأن (طاب) أيضا تستخدم بمعنى (نعم) وتجرى مجراها فى بعض الأساليب وهو يرى أن قول النحاة فى أن (ساء) دلت على الذم من كونها على (فعل) يرى أنه تكلف ، ومع أنه من كبار النحويين إلا أننا نلحظ رفضه لكثير من مقالاتهم دون حجج قوية أحيانا ، وبدون حجة أصلا أحيانا أخرى .

من ذلك أنه يقول عن قوله تعالى : ﴿ وحسنت مستقرا ومقاما ﴾ السياق يرشد لدلالة حسن على المدح ، وذكر أن هذا الموقع جعل النحاة يجرونها قاعدة ثابته [1]، والواقع يخالف ما قاله ، وبمطالعة كلام المفسرين الذين يولون الجانب النحوى اهتماما خاصا ، أبصرنا أنهم يعتمدون السياق أصلا فى تحديد دلالة الأفعال المحولة ، وآية ذلك أنهم ذكروا فى الايات التى ورد فيها الفعل (كبر) أن بعضها دال على الذم وجار مجرى بئس ، والبعض الآخر ليس كذلك .

وشئ آخر أن تحديد الدلالة للألفاظ قائم على إبصار الكلمات فى سياقات كلام العرب وآيات الله والحكمة ، فكأن السياق يضفى نورا على دلالة الكلمة الواردة فيه ، ومن أظهر ذلك ألفاظ الأضداد ، فما الذى دل على أن المراد بالظرف (فوقها) (تحتها) فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها . . .[2]﴾ قال العلماء المعنى ما تحتها وما دلهم على

(١) من أساليب القرآن . د/ إبراهيم السامرائى / ٩٧ .
(٢) البقرة / ٢٦ .

هذا المعنى إلا طبيعة السياق وجريانه سواء أكان سياق اللفظة فى السورة ، أو فى الكتاب العزيز كله ، والكلمة التى لا تتأثر بسياقها ولا تشع بنوره كلمة شائهة غريبة ، فما ذكره الشيخ الباحث إذن ليس بجديد .

خلو أفعال المدح والذم من الزمان ودلالته :

أسلوب المدح والذم من المعانى التى جرت فيها العربية على أن تؤدى بالفعل فى حيز الجملة الفعلية ، على أن يكون الفعل حدثا مفرغا من دلالة الزمان ، على نحو ما كان فى سائر الأساليب التى أفادت معانى خاصة كالدعاء والرجاء والتمنى وغير ذلك (١). فتفريغها من دلالة الزمان نقلها إلى وادى الإنشاء . بل وجعلها من الإنشاء غير الطلبى كما ذكر بعض أهل العلم ، فقد ذكر الدكتور عباس حسن أن (نعم وبئس) يعرب كل منهما فعلا ماضيا متجردا من دلالته الزمنية ومنسلخا عنها بعد أن تكونت منه ومن فاعله جملة إنشائية غير طلبية ، يعقد منها إنشاء المدح العام ، أو الذم العام من غير إرادة زمن ماض أو غير ماض ، فكلاهما انتقل الى نوع خاص من الإنشاء المحض غير الطلبى لا دلالة فيه على زمن مطلقا (٢).

وللدكتور تمام حسان طريقة أخرى فى تفسير دلالة خلوهما من الزمان حيث يقول : إن هذين اللفظين ليس معناهما الفعل الماضى كما زعم القائلون بذلك ، وإنما معناهما الإفصاح عن تأثر وانفعال ، دعا إلى المدح أو الذم ،بل إن ابن جنى فى اللمع يقول : إن معناهما المبالغة فى المدح والذم ، وتعبيره بالمبالغة يتجه اتجاه تعبيرى بالإفصاح ، وفى كلا التعبيرين إشارة إلى ما هو أكثر

(١) من أساليب القرآن / ٩٣ .

(٢) النحو الوافى ٣/٣٦٩ .

من مجرد المدح والذم [١]، ويقصد الدكتور تمام حسان بالإفصاح الإنشاء غير الطلبى ، فهو يقسم الإنشاء قسمين إنشاء طلبيا ، وإنشاء إفصاحيا ، ويجعل الإفصاح فى مقابل الطلب كما هو واضح فى كتابيه اللغة العربية معناها ومبناها، والبيان فى روائع القرآن .

وخلو جملتى المدح والذم من دلالة الزمان ، مع أن صورتهما صورة الحدث يجعل لهذا الأسلوب تميزا خاصا بين أساليب العربية .

---

(١) [illegible] ربية معناها ومبناها د. تمام حسان / ١١٥ .

الأساليب الإنشائية :

الأساليب الإنشائية تمتاز على الأساليب الخبرية بأنها ليست تلقينية إذ هى تثير الانفعال ، وتحرك المشاعر ، وتهيج الخاطر ، لذا أكثر الشعراء والعرب من استخدامها فى أشعارهم وخطبهم ومقالاتهم ، والبلاغيون يقسمون الإنشاء قسمين إنشاء طلبيا ، وإنشاء غير طلبى ، أما القسم الأول فقد توافرت الكتابة فيه ، وأولاه البلاغيون قديما وحديثا كبير عناية ، على العكس من القسم الثانى، وهو مما لا ينفق ومواقعه المتقنة والفاعلة فى كلام العرب ، والكتاب العزيز والحكمة الشريفة .

وكان من تشريف الله لى أن وفقنى إلى كتاب بحث فى الترجى[1] فى الذكر الحكيم ، وقد وجدت الترجى واقعا فى تسعة وخمسين ومائة موضع من الكتاب العزيز منها ما جرى مجرى الحقيقة ، ومنها ما جرى مجرى المجاز ، مما عجبنى من تعليل البلاغيين عدم دراستهم الإنشاء الغير الطلبى .

الإنشاء الغير الطلبى :

لم يذكره السكاكى ولا ابن مالك ولا العلوى [2]، إذ يعنونون لباب الإنشاء بقانون الطلب ، أو أحوال الطلب ، وذكر الخطيب المصطلح ولم يذكر أنواعه [3]، نعم ذكرها الشراح ، واتسع قولهم فيما يدخل فى الإنشاء منها وما

---

(١) الترجى فى آى من الذكر الحكيم بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة١٩٩٧ لكاتب هذه السطور .

(٢) انظر المفتاح / ٣٠٢ ، والمصباح لابن مالك / ٨٣ ، الطراز للعلوى ٣/ ٢٨٠ ، والتبيان للطيبى / ١٦٤ .

(٣) تلخيص المفتاح / ١٤٧ ، الإيضاح ٢/ ٣٢ .

لا يدخل ، وقد تابعوا على هذه المقالة فى التعليل لقلة عنايتهم بهذا الباب «فالإنشاء إن لم يكن طلبا كأفعال المقاربة ، وأفعال المدح والذم ، وصيغ العقود، والقسم ، ورب ، ونحو ذلك فلا يبحث عنها لقلة المباحث البيانية الإنشائية المتعلقة بها ، ولأن أكثرها فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء[1].

وقد ذكروا أنها أساليب إنشائية بمعناها المصدرى ، أى بمعنى الإلقاء ، قالوا : وإنما احتيج لذلك ؛ لأن الإلقاء هو الذى يصحح جعله قسما من الإنشاء ، بمعنى إلقاء الكلام الإنشائى [2].

وقد تابع القدماء كثير من المحدثين فى عدم الالتفات إلى دراسة هذا الباب[3] وقد أشار بعض أهل[4] العلم إلى أن أساليب الإنشاء الغير الطلبى فيها مواقع متقنة وفاعلة فى النفس أقوى الفعل ، غير أنه لم يتناول أيا منها .

وقد فرق بعضهم بين الإنشاء الطلبى والغير الطلبى بأن الإنشاء الطلبى يسبق التلفظ به الامتثال له ، فقولى لابنى : ذاكر ، منفصل زمانا عن تنفيذه لهذا الأمر ، فالأمر الآن ، والمذاكرة فى الزمن الذى يلى ذلك قريبا أو بعيدا ،

---

(١) مختصر السعد / ١٤٧ ، المطول / ٢٢٤ ، الأطول للعصام ١/ ٢٣٢ ، خلاصة المعانى / ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، شروح التخليص ٢/ ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) الدسوقى على مختصر السعد ٢/ ٢٣٦ ، حاشية عبد الحكيم على المطول ٣/ ٢٣٩ ، فيض الفتاح للخطيب الشربينى ٣/ ٢٣٩ .

(٣) علوم البلاغة للمراغى / ٦٧ ، أساليب بلاغية د. مطلوب / ١٠٧ ، علم المعانى د. عتيق / ٧٤ من بلاغة النظم العربى ٢/ ٦٩ وما بعدها ، معانى التراكيب ٢/ ١٢٣ وما بعدها ، المعانى فى ضوء أساليب القرآن / ١٤٨ ، ١٤٩ ، جواهر البلاغة / ٦٢ ، لطائف المعانى / ٥٥ البلاغة فنونها وأفنانها / ١٤٨ .

(٤) دلالات التراكيب / ١٩٢ .

أما الإنشاء غير الطلبى فيتحقق مدلوله بمجرد النطق به ، فإذا قلت : بعت يتحقق البيع بلا فارق زمنى بين التلفظ ووقوع البيع (1).

هذا وكثرة ورود الأساليب الإنشائية غير الطلبية فى كتاب الله ، والسنة الشريفة وكلام العرب يجعل الطاقات البلاغية تتوجه إلى البحث فيها ، لاكتشاف طاقاتها التعبيرية ، وخصائصها البلاغية ، فالترجى فى كتاب الله بالكثرة التى ذكرتها قبل ذلك ، وأسلوب المدح والذم موضوع دراستنا ، وقع فى خمسة وثمانين موضعا ، وأقسام القرآن كثيرة ، والأقسام فى البيان النبوى فوق الألف ، وكذلك الترجى ، وقل مثل ذلك فى كلام العرب ، فالأسلوب حين تتكاثر استعمالاته ، وبخاصة فى أشرف بيان وأعلاه ، إنما يدل ذلك على سموه ، وعلو بلاغته . ووفرة إيحاءاته .

لعلك الآن معى فى رفض مقالة من يرى إدخال باب الإنشاء فى ميدان الدراسات النحوية(2) بل أنت إلى الرفض أسرع لقول من يرى أن الأبر بعلم المعانى أن يكون فى الدراسات النحوية (3).

تقسيمات أخرى للأساليب :

ذكر ابن قتيبة أن الكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهى الأمر ، والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب ، وهو الخبر (4)، ولا يدخل الإنشاء الغير الطلبى هذا التقسيم ، والعلوى يقسم الإنشاء إلى طلب سلبى ، وطلب إيجابى ، فيجعل

(1) البلاغة الاصطلاحية ١٤٧ : ١٥٠ .
(2) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ١٢٠ وما بعدها .
(3) اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ١٨ ، ١٩ .
(4) أدب الكاتب / ١١ .

من الإيجابى الأمر والتمنى ، ومن السلبى النهى ، ولا يعرض للإنشاء الغير الطلبى (١).

وقد نقل الإمام السيوطى تقسيمات أخرى للأساليب ، ورجح تقسيمه إلى خبر وإنشاء ، بعد ما نقل أقوالا وتقسيمات كثيرة ، منها تقسيم الأسلوب إلى خبر وطلب وإنشاء ، وهناك من قسم الأسلوب عشرة أقسام ، ومنهم من قسمه تسعة أقسام (٢).

والدكتور تمام حسان قسم الأسلوب ثلاثة أقسام ، فالجملة عنده : خبرية، وشرطية ، وإنشائية ، والذى يعنينا هنا الإنشائية ، وهى عنده نوعان طلب وإفصاح ، والمقصود بالإفصاح عنده الإنشاء الغير الطلبى ، وقد ذكر أساليب الإنشاء الغير الطلبى تحت الإفصاح (٣).

والحق أن كل هذه التقسيمات لا تقدم ولا تؤخر فى الدرس البلاغى والأولى اتباع ما عليه جمهرة العلماء من تقسيم الكلام إلى القسمين المشهورين (الخبر والإنشاء) . وإنما ذكرنا ما ذكرنا حتى لا يفوتنا شئ مما له اعتلاق بالموضوع .

الخلاف فى أسلوب المدح والذم أخبر هو أم إنشاء ؟

ذكر جماعة من العلماء أن أسلوب المدح والذم أسلوب خبرى ، منهم نجم الدين الاستراباذى فى حكم الأدباء حيث يقول : فى كون فعلى التعجب وفعلى المدح والذم ، وكم الخبرية إنشاء نظر ، لأن فعل المدح والذم يحتملان

(١) الطراز للعلوى ٣/ ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢/ ٩٧ ، ٩٨ .

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها / ١٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٣٦٣ والبيان فى روائع القرآن / ٥٧ كلاهما للدكتور تمام حسان .

الصدق والكذب باعتبار ما لأجله المدح والذم ، وأن يحتملها باعتبار نفس المدح والذم ، ولذلك لما بشر أعرابى بمولودة ، وقيل : نعمت المولودة ، قال : والله ما هى بنعمت المولودة »[1].

وقد رد محمد بن على الجرجانى ذلك ، لأن فعل المدح ليس نسبته التى هى صورة اللفظ مسبوقة بنسبة أخرى للمدح ، حتى يكون بين النسبتين المطابقة وعدمها[2].

أما احتمالهما الصدق والكذب باعتبار ما لأجله المدح والذم ، فليس بسائغ ؛ لأنه ما من أسلوب ، إلا ويحتملهما بوجه من الوجوه ، وكذلك حين أتكلم بأسلوب مدح ، أو أسلوب ذم لا يسبق ذلك أمر فى الواقع ، بل إن هذا الأسلوب يجسد الإحساس بالانفعال لشئ موجود إما مدحا ، وإما ذما ، دون نظر إلى احتمال ما كان الانفعال لأجله محتملا الصدق أو الكذب .

ثم إنك لا تلمح فى قول الأعرابى : والله ما هى بنعمت المولودة ، لا تلمح احتمال صدق ولا كذب ، وليس فى نفى الأعرابى مدح الأنثى تكذيبا لمدح المبشر ، بل هو يواجه استحسان المبشر ، باستقباح ما استحسنه ، فأنا من الممكن أن أنفعل بمحامد رجل فأقول : نعم الرجل ، ومن الممكن أن ينفعل بمساونه آخر فيقول : بئس الرجل ، فلا مجال لاحتمال صدق ولا كذب .

ولا غرابة فى إخراج البعض لأسلوب المدح والذم من الإنشاء ، فقد أخرج ابن جنى القسم إلى الخبر ، وهو أمر غريب[3] ، والحق هو ما ذهب إليه جمهور البلاغيين من عده أسلوبا إنشائيا ، وذلك فى تعليلهم عدم العناية

(١) الإشارات والتنبيهات / ١٠٢ وعروس الأفراح ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٧ .

(٢) السابق / ١٠٢ وعروس الأفراح ٢/٢٣٤ ، ٢٣٧ .

(٣) اللمع فى العربية لابن جنى / ٢٤١ .

بدراسة الإنشاء الغير الطلبى ، إذ رأوا أن أكثر الأساليب الإنشائية الغير الطلبية فى الأصل أخبار وضعت موضع الإنشاء ، وأنه يستغنى بأبحاثها الخبرية عن الإنشائية ، لأنها تنقل مستصحبة لما يرتكب فيها فى الخبرية[1] . وقد تابعهم المحدثون[2] فى عد أسلوب المدح والذم من الأساليب الإنشائية الغير الطلبية ، ولا أعرف خلافا بين العلماء فى أنها إنشاء طلبى أو غير طلبى ، ولكن الخلاف فى كونه أسلوبا خبريا أو إنشائيا .

القول فى عطف الإنشاء على الخبر أو العكس :

هذه المسألة الخلافية وجب إيرادها لصلتها الوثيقة بموضوع أسلوب المدح والذم فى القرآن الكريم ، فقد وقع أسلوب المدح والذم فى الذكر الحكيم فى خمسة وثمانين موضعا ، اثنان وأربعون موضعا منها اقترن بالواو ، مسبوقا بجملة خبرية لفظا ومعنى ، وتسعة عشر موضعا اقترنت بالفاء ، وأربعة وثلاثون موضعا وقع غير مقترن بحرف ، والطريقتان الأخيرتان لا إشكال فيهما عند الجمهور أما الطريقة الأولى فهى مسألة خلافية بين العلماء .

من المعلوم أن الإشكال يكون فى الجمل المعطوفة بالواو على ما لا محل له من الإعراب ، أما المعطوف بغير الواو ، أو المعطوف على جمل لها محل من الإعراب فلا إشكال فيه . والنوع الأخير لم يقع إلا فى آية واحدة من موضوعنا وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

---

(١) مواهب الفتاح ٢/ ٢٣٧ ، الأطول ١/ ٢٣٢ .

(٢) أساليب بلاغية د. مطلوب /١٠٧ ، من بلاغة النظم العربى ٢/ ٧١ ، علوم البلاغة للمراغى /٦١ ، علم المعانى د. عبد العزيز عتيق /٧١ ، دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى / ١٩٢ ، معانى التراكيب د. عبد الفتاح لاشين ٢/ ١٢٣ وما بعدها، جواهر البلاغة /٦٢ ، البلاغة فنونها وأفنانها /١٤٨ ، البلاغة الاصطلاحية د. قلقيلة ١٤٧ : ١٥٠ .

(آل عمران / ١٣٦) لأن جملة المدح ، وهى إنشائية ، معطوفة على جملة (حسبنا الله) وهى خبرية إلا أن لها محلا من الإعراب ، ومع هذا لم تخل من الخلاف فيها .

فقد ذكروا أن الواو إما أن تكون من الحكاية ، أو من المحكى ، فإن كان الأول فيكون من عطف الإنشاء على الأخبار ، فيما له محل من الإعراب ، لكونهما حينئذ فى حكم المفردين ، فأمر العطف ظاهر من غير تكلف التأويل، لكن القول بجواز هذا العطف بدون التأويل عند الجمهور ممنوع لابدله من شاهد ، ولم يثبت ، وإن كان الثانى ، وقلنا بجواز عطف الإنشاء على الأخبار مطلقا، أو قلنا بجواز عطف القصة على القصة ، أى مضمونا على مضمون ، فالأمر ظاهر أما عند الجمهور فلا بد من التأويل فى جانب المعطوف ، أو المعطوف عليه[1] ، والآلوسى فى هذا الموضع لم يرفض التقدير ، وهذا يعنى أنه يرتضى الرأى الوسط من أنه عطف مضمون كلام على مضمون كلام ، أو عطف معنى على معنى ، والحق أن الآية لا تستدعى كل هذه الخلافات ، إذهى من العطف بالواو على ماله محل من الإعراب فتعامل معاملة المفردات ، وهذا ما ذهب إليه العصام [2].

وقد تجاذب الأئمة الآراء فى الجمل المقترنة بالواو وقبلها ما لا محل له من الإعراب ، ففريق من النحاة يجيز العطف مطلقا ، والبيانيون يمنعون مطلقا[3]، والذين أجازوا استدلوا بما وقع فى الذكر الحكيم ، والذين منعوا تأولوا ما ورد على خلاف مذهبهم بوجوه من التأويل .

---

(١) روح المعانى ٤/ ١٢٧ .

(٢) الأطول ٢/ ٨ .

(٣) مغنى اللبيب ٢/ ٤٨٢ : ٤٨٤ .

ولابن السبكى طريقة فى تقريب الخلاف إذ يقول : وحاصله أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين، لأنه عند من جوزه يجوزه لغة ، ولا يجوزه بلاغة [1] .

وفى ذلك نظر كما قال المغربى : «وفيه نظر ، لأن الجائز لغة ما لم يكن نادرا لا ينافى البلاغة »[2]، ويرد كلام المانعين كثرة النصوص الموجودة فى الذكر الحكيم وقد بينا عددها آنفا ، وهى نصوص من أعلى بلاغة وأشرفها .

وقد ذكر التفتازانى فى حاشيته على الكشاف أن عطف الإنشاء على الأخبار كثير[3] ، والواجب أن يكون وجه الاحتكام هو النظر فى النصوص الشريفة ، ومحاولة التقاط الوجه فى العطف ، من أجل ذلك كثرت التأويلات، ويمكن إجمال طرائقهم فيما يلى :

أولا : أن الواو عطفت قصة على قصة ، أو مضمون كلام على مضمون كلام ، أى معنى على معنى ، مثاله ذلك ما قيل عند قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات . . . ﴾ (البقرة / ٢٥) ذكروا أن الواو عطفت جملة وصف ثواب المؤمنين ، على جملة وصف عقاب الكافرين [4]. وقد لخص صاحب الكشف القول فى ذلك فقال : إنه من باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى ، مسوقة لآخر ، والمقصود بالعطف

---

(١) عروس الأفراح ٣/ ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) مواهب الفتاح ٣/ ٢٦ .

(٣) عن دلالات التراكيب ٣٢٥ .

(٤) الكشاف ١/ ٥١ ، الإيضاح ٣/ ٧٥ ، ٧٦ ، عروس الأفراح ٣/ ٧٥ ، ٧٦ ، الإشارات والتنبيهات ١٢٩ ، ١٣٠ ، مغنى اللبيب ٢/ ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

المجموع ، وشرطة المناسبة بين الغرضين [١]، أو تضمين الإنشاء معنى الخبر أو العكس [٢].

ثانيا : أن الواو للعطف ، ويقدر محذوف إما فى جانب المعطوف ، وإما فى جانب المعطوف عليه ، فيقولون فى آية البقرة : بلغ يا محمد الذين كفروا، أو حذر الذين كفروا[٣] ... ويبدو أن هذا لا يسوغ دائماً ، فمثلا فى سورة الصف : ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾ (الصف /١٣) عطف قوله : (وبشر) على قوله : (تؤمنون) لكونه بمعنى آمنوا ، لقوله: يغفر لكم بالجزم جوابا عنه ، وفيه أيضا نظر ، لعدم المجانسة لكون تؤمنون مسند إلى الكفار ، و (بشر) مسند إلى النبى . كذا قال محمد الجرجانى[٤] ومنهم من يقدر قل ، أو قلنا حتى يتم التجانس بين المتعاطفين ، المهم أن العطف يكون على مقدر .

ثالثا : ذكر الشيخ أبو موسى أن الواو التى ذكروا أنها عطفت معنى على معنى أو قصة على قصة ، هى ما سماها ابن هشام واو الاستئناف ، ثم خلص إلى أنه يمكن أن نسمى الجمل التى جاءت على هذه الطريقة باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض [٥].

هذا وباستقراء كلام المفسرين فى موضوع دراستنا وجدنا تأويلاتهم فى الجمل التى من هذا الباب لا تخرج عن توجيهات يمكن حصرها فيما يلى :

---

(١) عن دلالات التراكيب ص ٣٢٨ .

(٢) التبيان للطيبى ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) عروس الأفراح ٣ / ٧٥ ، ٧٦ والإشارات ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، التبيان ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) الإشارات والتنبيهات ١٣١ والكشاف ٤/ ٩٥ .

(٥) دلالات التراكيب ٣٢٥ : ٣٢٩ .

أولا : أن الواو فى كثير من المواقع للاعتراض أو الحال .

ثانيا : أن الواو للاستئناف .

ثالثا : أن الواو عطفت جملة الإنشاء على جملة إنشاء محذوفة .

رابعاً : أنهم قدروا محذوفا يسوغ العطف .

وأخلص من كل هذا إلى أن الواو ما لم تكن واو الاعتراض ، أو الحال فهى الواو الاستئنافية التى مهمتها ضم جملة مسوقه لغرض إلى أخرى مسوقة لغرض .

من خصائص أسلوب المدح والذم :

يمكن استخلاص خصائص لهذا الأسلوب توجد فى كل جملة ، وكل تركيب ، ثم يتفرد كل تركيب بعد ذلك - حسب سياقه ، وإضاءة مقامه - بمقصد خاص .

١ - يفيد هذا الأسلوب الإطناب بطريق الإيضاح بعد الإبهام ، فالإبهام يوجب ألم النفس لجهلها به ، والتفسير يوجب لذتها ، واللذة بعد الألم أقوى منها ابتداء .

٢ - أن الإيضاح بعد الإبهام الكائن من باب نعم ، يصح أن يقصد به إراءة المعنى فى صورتين مختلفتين فى مقامه ، وأن يراد به زيادة تمكين الممدوح فى القلب ، وزيادة تقبيح المذموم فى القلب .

٣ - أن الإيضاح بعد الإبهام بهذا الأسلوب يمكن أن يراد به كمال لذة العلم حيث يراد به إمالة السامع لهذا الكلام ، فتتم محبته للممدوح .

٤ - أن فى هذا الأسلوب إبرازاً للكلام فى معرض الاعتدال ؛ نظرا إلى

إطنابه من وجه - بالإيضاح بعد الإيهام - وإيجازه من وجه آخر بالحذف ، ففى ذلك إيهام للجمع بين المتنافيين (الإيجاز والإطناب) ولا شك أن إيهام الجمع بين المتنافيين من الأمور المستغربة ، التى تستلذها النفس ، وبذلك تكون قد اجتمعت فيه جهتا البلاغة (الإيجاز والإطناب) (١).

٥ - أن هذا الأسلوب يفيد المبالغة فى الذم أو المدح .

٦ - أنه يجب فيه تقديم المسند على المسند إليه ، وذلك على إعراب المخصوص مبتدأ مؤخرا ولم يوجد المسند إليه مقدما فى الذكر الحكيم ، فيما ورد منه .

٧ - أن الفعل (بئس ونعم وما جرى مجراهما) كأنه يسند مرتين ، إلى الفاعل مرة ، وإلى المخصوص مرة أخرى ، مما يمكن معنى المدح أو الذم ويؤكده .

٨ - أن هذا الأسلوب يفيد المبالغة من وجهين من كون فعلى المدح والذم أجمع للمذام ، وكون الفاعل عاما .

هذه مقاصد عامة ، وخصائص عامة لهذا الأسلوب ، ولكل تركيب بعد ذلك ما يختص به من لطائف وإيحاءات ، نحاول - بعون الله - التنقيب عن بعضها قدر الطاقة .

---

(١) انظر شروح التلخيص ٣/٣١٣ وما بعدها ، الأطول ٢/٤٢ ، الإشارات والتنبيهات ١٥٣ ، علوم البلاغة للمراغى / ١٩٢ ، ١٩٣ ، أساليب بلاغية د. مطلوب/ ٢٣٢.

حصر الآيات موضع البحث

أولا : أسلوب المدح : (المدح بنعم) .

(البقرة ـ ٢٧١ ، آل عمران ـ ١٣٦ ـ ١٧٣ ، النساء ـ ٥٨ ، الأنفال ـ ٤٠ ، الرعد ـ ٢٤ ، النحل ـ ٣٠ ، الكهف ـ ٣١ ، الحج ـ ٧٨ ، العنكبوت ـ ٥٨ ، الصافات ـ ٧٥ ، ص ـ ٣٠ ، ٤٤ ، الزمر ـ ٧٤ ، الذاريات ـ ٤٨ ، المرسلات ـ ٢٣) .

المدح بما جرى مجرى نعم :

(النساء ـ ٦٩ ، الكهف ـ ٣١ ، الفرقان ـ ٧٦)

ثانيا : أسلوب الذم .

الذم ببئس

(البقرة ـ ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٢٦ ، ٢٠٦ ، آل عمران ـ ١٢ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٨٧ المائدة ـ ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٩ ، ٨٠ ، الأنفال ـ ١٦ ، التوبة ـ٧٣ ، هود ـ ٩٨ ، ٩٩ ، الرعد ـ ١٨ ، إبراهيم ـ ٢٩ ، النحل ـ ٢٩ ، الكهف ـ٢٩ ، الكهف ـ ٥٠ ، الحج ـ ١٣ ، الحج ـ ٧٢ ، النور ـ ٥٧ ، ص ـ ٥٦ ، ٦٠ ، الزمر ـ ٧٢ ، غافر ـ ٧٦ ، الزخرف ـ ٣٨ ، الحجرات ـ ١١ ، الحديد ـ١٥ ، المجادلة ـ ٨ ، الجمعة ـ ٥ ، التغابن ـ ١٠ ، التحريم ـ ٩ ، الملك ـ٦)

الذم بما جرى مجرى (بئس)

(النساء ـ ٢٢ ، ٣٨ ، ٩٧ ، ١١٥ ، المائدة ـ ٦٦ ، الأنعام ـ ٣١ ، ١٣٦ ، الأعراف ـ ١٧٧ ، التوبة ـ ٩ ، النحل ـ ٢٥ ، ٥٩ ، الإسراء ـ ٣٢ ، الكهف ـ ٢٩ ، طه ـ ١٠١ ، الفرقان ـ ٦٦ ، الشعراء ـ ١٧٣ ، النمل ـ ٥٨ ، العنكبوت ـ ٤ ، الصافات ـ ١٧٧ ، الجاثية ـ ٢١ ، الفتح ـ ٦ ، المجادلة ـ ١٥ ، المنافقون ـ ٢ ، الكهف ـ ٥ ، الحج ـ ٧٣ ، غافر ـ ٣٥ ، الصف ـ ٣) .

الفصل الأول

من أسرار أسلوب المدح فى الذكر الحكيم

وقع أسلوب المدح فى سياقات متعددة فى الذكر الحكيم ، والذى يظهر أن المدح أو الذم لا يقصدان لذاتهما ، وإنما يأتيان لإثبات غرض من الأغراض، أو إبراز مقصد من المقاصد ، ولما كانت هذه الأساليب بهذه الطريقة تناولنا مواضعها بحسب سياقاتها ، إذ السياقات هى التى تحدد الغرض الذى سيق من أجله الأسلوب .

أسلوب المدح فى سياق الحديث عن الصدقة

لم يقع ذلك إلا فى موضع واحد من الذكر الحكيم قال تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾ (البقرة / ٢٧١) .

وقعت هذه الآية الكريمة بعد حديث طويل عن الصدقة الخالصة ، والصدقة المتبوعة بالمن والأذى ، ولم يمتد الحديث عن الصدقة فى سورة من سور الذكر الحكيم امتداده فى هذه السورة الكريمة ؛ تناسبا مع مطلعها ، ونظرا إليه ، إذ كان وصف المؤمنين بالإنفاق من أعلى أوصاف المؤمنين ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ (البقرة / ٣) .

ولك أن تسأل هنا عن سبب المجئ بأسلوب المدح ، بل بما هو أجمع للمدح ، أو التناهى فى المدح ؟ والجواب إن شاء اله ـ أنه لما طال الحديث عن الصدقة المتبوعة بالمن والأذى ، فكان ذلك ـ غالبا ـ ما يظهر فى الصدقات المبدأة ، إذ هى مظنة ذلك ، جاء بأسلوب المدح نفيا للشك عنها ، هذا هو المقصود من إيراد أسلوب المدح فيما يبدو ، ويمكن تحديد الغرض فى هذا

السياق ، بأن أسلوب المدح جاء لقصد نفى الشك عن الصدقة المبدأة ، ولأنها مظنة ذلك جبرها بأمرين ، أولهما : تقديمها على صدقة السر ، ثانيهما: أسلوب المدح .

هذا وقد وقعت الآية الكريمة بأسلوب الشرط ، وبنيت على التقابل (إن تبدوا . . . وإن تخفوها) وذلك مما يوحى أن الصدقتين ما أخلص فيهما ، فهما مقبولتان عند الله ، وإن تباينت الطرائق فى أدائها ، يدل على ذلك أيضا جواب الشرط فى كل منهما (فنعما هى) (فهو خير لكم) .

وقد ذكر سيبويه والكسائى أن (ما) معرفة تامة فى (نعما) بمعنى الشئ ، والتقدير : نعم الشئ هى ، وأنها فاعل لكونها بمعنى ذى اللام ، أى فى العموم ، وقد ضعف ذلك بعضهم ، لعدم مجئ (ما) معرفة تامة فى غير هذا الموضع [1].

ولا يمكن أن تكون (ما) هنا موصولة ، لأن الموجود بعدها كلمة (هى) وهى لفظا مفرد لا يصلح صلة للموصول ، وليست بموصوفة أيضا ، لأن الضمير لا يوصف به ، فهى نكرة ، وقد أعربها بعضهم تمييزا ، والفاعل مقدر[2].

وقد ذكروا أن معنى كونها نكرة تامة ، أى متوغلة فى الإبهام ، لا يقيد وصفها بما يخصصها ، فتمامها من حيث عدم إتباعها بوصف ، لا من حيث

(١) انظر الكتاب ١/ ٣٧ ، همع الهوامع ٢/ ٨٦ ، الأشمونى ٢/ ٣٥ ، ٣٦ عن دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/ ٣٦٠ .

(٢) الكشاف ١/ ٣٩٧ ، مفاتيح الغيب ٧/ ٧١ ، ٧٢ ، أنوار التنزيل ١/ ٥٨٢ ، حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوى ١/ ٥٨٢ ، روح المعانى ٣/ ٤٤ .

إنها واضحة المعنى ، ولذلك تفسر بشئ [1]، ومعلوم أن (نعما) أصلها نعم ما ثم حدث الإدغام .

على أية حال . ما هنا عامة ، تمييزا كانت أو فاعلا ، لأنها إن كانت تمييزا فهى تفسر الفاعل ، فلا يخرج الفاعل عن العموم فى الحالتين ، كما أن (ما) أدخل فى الإبهام ، وقد التقط البقاعى وجه التناسب بين (نعم) التى تفيد المدح العام ، و(ما) التى هى أدخل فى الإبهام ، فقال بعد الحديث عن مناسبة الآية : «فجمع لها الأمداح المبهمة ، لأن «نعم» كلمة مبالغة تجمع المدح كله ، و(ما) كلمة مبهمة تجمع الممدوح ، فتطابقتا فى الإبهام» [2].

والمخصوص بالمدح هنا الضمير (هى) وقد جاء مؤخرا وهو مسند إليه ، وفى تأخيره تشويق إلى ذكره ، فإن النفس ما إن تسمع مدحاً ، إلا وتشرئب إلى معرفة الممدوح ، وتطمح إلى ذكره ، وفى تعريفه بالضمير زيادة عقد لجملة الجواب بجملة الشرط ، حيث ظهر بأسلوب الشرط أن المدح عوض الإبداء ، وجزاء له ومترتب عليه ، وكل ذلك مما يدفع غائلة التهم عن الصدقات المبدأة. أضف إلى ذلك ما فى الأسلوب من الخصائص العامة ، من الإيضاح بعد الإبهام ، وما يحصل به من اللذة وتعلق النفس ، وما فى هذا الأسلوب من طرفى البلاغة (الإيجاز والإطناب) وغير ذلك مما يستصحب فى كل أسلوب مدح أو ذم .

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٩٧ .

(٢) نظم الدرر ١/ ٥٢٦ .

قال تعالى : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران / ١٧٢ ، ١٧٣) .

الآية الكريمة نزلت ضمن آيات كريمات فيما سمى فى السير بغزوة ذات القروح التى أعقبت غزوة أحد ، وكانت أحد درسا شديد البلاء لتوجيه المؤمنين إلى طاعة أمر رسول الله ـ ﷺ ـ وإن بدالهم وجه الخير فى خلافه .

فليس لهم اتباع هواهم بحال من الأحوال ، ثم دعوا بعد عودتهم من أحد ، وقد أصابتهم قروح شديدة ، وأنهكت قواهم الحرب ، دعوا إلى الخروج للجهاد ، وخصت الدعوة من كان موجودا فى أحد فقط ؛ ابتلاءلهم فى موقفهم من أمر الله ؛ وكشفا لغيرهم كيف يفيد المؤمنون من الابتلاءات ؟ حتى وإن أحاط بهم الخوف من كل جانب ، حتى وإن أحسوا بالضعف يحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وذلك قوله : ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ لذا جاء حرف التعقيب (فزادهم) كشفا عن سرعة جوابهم ، وتمام انقيادهم لأمر الله ، ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ والظاهر ـ والله أعلم ـ **أن مقصودهم الأعلى من سوق أسلوب المدح هو إظهار تمام الانقياد لأمر الله ، وتمام الامتثال له** ، فجئ بالأسلوب الكاشف عن التناهى فى مدح الموكول إليه ، المفوض إليه جميع الأمور .

وجملة (ونعم الوكيل) معطوفة على قوله : ﴿حسبنا الله﴾ فهى معطوفة

على ما له محل من الإعراب ، من عطف الإنشاء على الخبر ، وقد ذكر العلماء أن مثل هذا لا تطلب منه إلا المناسبة [1].

وقد علل البقاعى لمجئ أسلوب المدح بقوله : «ولما كان ذلك هو شأن الوكيل ، وكان فى الوكلاء من يذم قال : ﴿ونعم الوكيل﴾ أى الموكول إليه المفوض إليه جميع الأمور [2]» كأنه يقول شأن الموكول إليه أن يكون كافيا ، ولما كان هناك من الوكلاء من يذم ، جئ بأسلوب المدح تأكيدا لكافيته المتوكلين، ووقايته إياهم من كل سوء ، ومعنى هذا أن أسلوب المدح جئ به هنا للتأكيد ، وهو لا يتنافى مع ما ذكرته استنباطا من تظاهر السياق على إظهار المؤمنين تمام امتثالهم لأمر الله ـ عز وعلا ـ ثقة فى نصره لهم ، واطمئنانا لكافيته لهم من عدوهم .

وقد لحظت أن البقاعى يجرى (فعيل) (الوكيل) على مفعول ، وقد ذكر ذلك غيره [3]، وذكر آخرون أن (الوكيل) بمعنى اسم الفاعل أى (الكافى) ، واستدلوا لصحة ذلك ، بأن نعم سبيلها أن يكون الذى بعدها ، موافقا للذى قبلها تقول : رازقنا الله ، ونعم الرازق [4]، كأنهم يريدون أن المعنى هنا كافينا الله وهو الكافى ، وهو ـ والله ـ وجه كاشف عن طريقة علمائنا فى تحديد دلالة الصيغة بناء على ما يقتضيه جريان السياق ، وتحدر الكلام .

المهم أنك ترى الفاعل وقع بلام الجنس ؛ تناهيا فى مدح كفاية الله

---

(١) روح المعانى ٤/ ١٢٧ ، التحرير والتنوير ٤/ ١٧٠ .

(٢) نظم الدرر ٢/ ١٨٤ .

(٣) الكشاف ١/ ٤٨١ ، أنوار التنزيل ١/ ٦٨٨ ، روح المعانى ٤/ ١٢٧ .

(٤) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٠١ .

أهله، وحمايتهم ، والمخصوص بالمدح هنا محذوف ؛ إشارة إلى أنه لظهور تعينه ووضوح تحديده ، وأنه لا يمكن أن يلتبس بغيره حذف إظهارا لتمام التعين وإلماعا إى أنه لا يغيب عن الخاطر ، وفى تأخيره تشويق إلى ذكره ، وفى الإيضاح بعد الإبهام حصول كمال اللذة للعلم بعد الجهل ، وللإظهار بعد الإخفاء وغير ذلك مما يمكن أن يظهر لك ـ مضافا إليه ما ذكر فى التمهيد فى الخصائص العامة لهذا الأسلوب .

أسلوب المدح فى سياق الحديث عن الأمانة والعدل

قال تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ (النساء / ٥٨) .

ذكر المفسرون هنا كلاما يكتب بماء التبر لا بالحبر ، ومن مثل هذه المواضع شققت موضوع البحث ، وأيقنت أن المدح وحده ليس مقصدا تسعى التراكيب القرآنية إليه ، وإنما تقصد أمور ولطائف يأتى أسلوب المدح ليكون المتم لها . وموضع البحث فى الآية الكريمة ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ .

خذ هذه الأقوال فقد ذكروا أن هذه جملة مستأنفه مقررة لمضمون ما قبلها متضمنة لمزيد اللطف بالمخاطبين ، وحسن استدعائهم إلى الامتثال [1]﴾

وتكلم البقاعى على المناسبة فقال : «ولما أخبرهم بأمره زادهم رغبة بقوله: ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ وحثهم على المبادرة إلى حسن الامتثال بقوله: ﴿ إن الله . . .﴾ مكررا لهذا الاسم الشريف ، ليحتذوا فى الترقى فى طهارة الأخلاق إلى حد لم يبلغه غيرهم [2]﴾ .

وقد ذكر ابن عاشور أن جملة ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر ﴾ [3].

فيكون المقصد من أسلوب المدح : **حسن الاستدعاء إلى امتثال الأمر**، والمدح وسيلة عالية إلى حسن الاستدعاء ، أو المقصد : **الحث على**

---

(١) أبو لاسعود ٢/ ١٩٢ ، روح المعانى ٥/ ٦٤ .

(٢) نظم الدرر ٢/ ٢٧١ .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥/ ٩٦ .

المبادرة إلى حسن الامتثال ، أو المقصد : التحريض على امتثال الأمر ، وكلها استنباطات جيدة لعلماء الأمة .

وقد وقعت جملة المدح خبرا لإن ، فأفاد ذلك تأكيد التناهى فى المدح ، وذلك يضيف إلى المقصد من المدح زيادة فى الترغيب ، وقد أعرب العلماء (ما) فى نعما إعرابات متعددة ، فهى إما أن تكون نكرة تامة ، وجملة يعظكم صفة موصوف محذوف ، وهو المخصوص بالمدح ، وإما أن تكون (ما) تمييزا ، وفاعل نعم محذوف ، وجملة يعظكم به صفة لـ (ما) ، وإما أن تكون (ما) موصولة ، فاعل نعم ، وجملة يعظكم صلة الموصول ، وهو الوجه الأبعد من التكلف والأولى ، وقد اتفقوا على أن المخصوص بالمدح محذوف [١].

وأغرب ما قيل فى (ما) أنها زائدة كافة نعم عن العمل [٢]، وليس له وجه لأن نعم ليست من النواسخ ولا الحروف ، فوق أنه لم يقل أحد بذلك .

ويمكن أن يكون وراء التعبير بـ (ما) هنا إلماع إلى أن كل ما يعظ به الله ممدوح ، وذلك أن (ما) أدخل الموصولات فى الإبهام ، ففى التعبير بها شمول وعموم ، وحين تفسر بسياقها هنا ، بأن المقصود بها أداء الأمانات والحكم بالعدل ، يفيد هذا التفسير ، زيادة اختصاص هاتين الصفتين بمزيد مدح ، وتأكيد المبادرة إلى حسن امتثال لهما ، هذا وفى التعبير بالمضارع (يعظكم) دلالة على استمرار وتجدد وعظ الله عباده ، والمخصوص هنا بالمدح حذف بعد

---

(١) الكشاف ١/ ٥٣٥ ، مفاتيح الغيب ١٠/ ١٤٢ ، أنوار التنزيل ٢/ ٤٤ ، أبو السعود ٢/ ١٩٢ زاده على البيضاوى ٢/ ٤٤ ، روح المعانى ٥/ ٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٥/ ٩٦ .

تأخيره ، فوراء التأخير تشويق إلى ذلك الممدوح ، ثم بعدما يتشوق السامع والقارئ إليه لا يجده ، فيعود مسرعا إلى السياق بحثا وتنقيبا عنه ، فالتأخير يثير القارئ ، والحذف يلهب إثارته مع ما فى ذلك من الإيجاز ، والإطناب ، كل ذلك يؤدى إلى إعادة النظر فى التركيب مرات لفقه دلالته ، واستكشاف أهميته، والسياق يدل على أن المخصوص بالمدح هنا أداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقد حذف لتعينه بالسياق ، غير أن الحذف فيه إثارة كما ذكرت .

قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعملوا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (الأنفال / ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) .

السياق هنا غيره فى سورة الحج ، مع أن كلا من الآيتين مختوم بالصيغة نفسها (نعم المولى ونعم النصير) ؛ لذا لا تجد الغرض والمقصد واحدا ، وإنما يقصد من أسلوب المدح هنا غرض يتلاءم والسياق ، ويقصد منه فى سورة الحج غرض يتلاءم وسياق سورة الحج .

جاء أسلوب المدح هنا فى سياق الأمر بقتال الكافرين ، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ولا يخرج حال الكافرين عن أمرين ، إما أن ينتهوا فلا يقاتلوا المؤمنين ، وإما أن يعاودوا قتالهم ، والملحوظ أن الأمر الأول ختم بقوله : (فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير) ومعلوم أن هذه الجملة الخبرية ، لا يراد منها الإخبار وإنما يراد منها أمران ، أولهما بتهديد الكافرين فى حالة الانتهاء ، أن تكون منهم خدعة ، أو أن يكون منهم تدبيروثانيهما : تطمين المؤمنين أن الكافرين تحت بصر الله ورقابته ، وذلك أدعى لاطمئنانهم ، مع أنهم لا يقرون بغيره .

أما الأمر الثانى : ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ﴾ ومعلوم أن الأمر فى (فاعلموا) ليس على حقيقته ، وإنما المراد منه تحقيق حسن الولاية ، ويمكن أن يفيد تطمين المؤمنين أيضا ، فإنه إذا ما كان الله ـ عز وعلا ـ فى حالة عدم القتال راقب الكافرين ، فهو فى القتال أقوى مراقبة ، وإذا ما كان كذلك فأكرم به من مولى ، فتحدر السياق هو الذى ساق إلى أسلوب المدح ، ولم

يسغ هنا أن يقال : نعم الوكيل ، نعم العزيز . . . أو غير ذلك لأنه لا يتواصل مع السياق ، لأنه إذا ما كان الله مولاك ، فإن قتالك يكون أعنف وأشد ، لأنك تقاتل بقلبك وجوارحك ثقة بولاية الله ، ومع بعد القياس حين يتولى حمايتك أحد أقوياء الأرض ، انظر حالك فى تصرفاتك ، فكيف بك إذا من كان مالك الكون له هو مولاك ؟ ، فتحدر السياق جار هنا على تطمين المؤمنين، وهو المقصود الذى تتظاهر عليه التراكيب ، وقد أكد أسلوب المدح هذا المقصد أحسن توكيد ووفاه ، **لغرض زيادة تطمين المؤمنين ، أضف إلى هذه الزيادة زيادة أخرى ، هى زيادة التطمين بالنصر المظفر ﴿ونعم النصير﴾** .

وأسلوب المدح متناسب مع المقصد تمام التناسب بما فيه من الخصوصيات، الإيجاز والإطناب ، والتكيد ، وقد جاءت جملة المدح مستأنفة لأنها إنشاء ثناء على الله ، فكانت بمنزلة التذييل ، وعطف على قوله : ﴿ نعم المولى﴾ قوله : ﴿ ونعم النصير ﴾ لما فى المولى من معنى النصر »[1] .

فجملة المدح تأكيد لقوله ﴿فاعلموا أن الله مولاكم) ، وفاعل نعم الأولى (المولى) ، وفاعل نعم الثانية (النصير) والمخصوص بالمدح محذوف فى التركيبين، وفى حذفه إلماع إلى تعينه ، ومعنى هذا أنك لو مدحت أفراد جنس كل منهما بمدائح ، لكان الله عز وعلا ـ أجمع لهذه المدائح ، بل وأعلى منها بما لا يخطر على قلب أحد .

وأختم هذا الموضع بنص للبقاعى ـ رحمه الله ـ فى التقاط وجه التناسب حيث يقول : ثم استأنف مدحه بما هو أهله **تعريفا بقدره ، وترغيبا فى توليه،** فقال : (نعم المولى)،ولم يدخل فاء السبب هنا ، لأن المأمور به العلم ،

(١) التحرير والتنوير ٣٤٨/٩ .

واعتقاد كونه مولى واجب لذاته ، لا لشئ ، بخلاف ما فى آخر الحج، فإن المأمور به هناك الاعتصام (ونعم النصير) أى : فلا تخافوهم أصلا ، وإن زادت كثرتهم ، وقويت شوكتهم ، فلا تبارحوهم حتى لا يكون إلا كلمة الله[1] ، ونصه كاشف عن أن أسلوب المدح له مقصد وهدف ، وكذلك كشف بكلامه عن أن السياقين متغايران .

قال تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ (الحج/٧٨).

كأنى بالآية الكريمة تنادى على قوله تعالى فى أوائل السورة ، قال تعالى: ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ (الحج / ١٢ ، ١٣) . وقد تحدر السياق كاشفا عن نصر الله عباده المؤمنين ، ودحره كيد المشركين ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله . . . ﴾ (الحج/ ١٥) .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . . ﴾ (الحج /٣٨) والسياق يبين قدرة الله ، وضعف المعبودين من دونه : ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا . . .﴾ (الحج / ٧٣) ثم ختمت السورة الكريمة بأوامر متتابعات لله ـ عز وعلا ـ إلى عباده المؤمنين ، من بعد السياق الطويل من مطلع السورة الكريمة ، والذى يتدافع لإلقاء هذه الأوامر إليهم ، وجاءت جملة المدح خاتمة لهذه

---

(١) نظم الدرر ٣/٢١٨ .

الأوامر ، وقد وقعت جملة (هو مولاكم) «مستأنفة معللة للأمر بالاعتصام بالله، لأن المولى يعتصم به ، ويرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته[1]» وبين الجملتين كمال انقطاع ، فالأولى ﴿واعتصموا بالله﴾ إنشائية لفظا ومعنى ، والثانية ﴿هو مولاكم﴾ خبرية لفظا ومعنى ، ومع ذلك أنت تحس أن فى الثانية شوب توكيد للأولى ، لأن كونه مولى يدفع إلى الاعتصام به ، والاستمساك به ، وقد جاءت الجملة معرفة الطرفين مما يفيد القصر ، وفى ذلك ترغيب للمؤمنين فى طاعة الله ، وحث لهم عليها ، ثم زاد فى الترغيب والحث على الطاعة ، بما فرع على هذه الجملة الاستئنافية من أسلوب المدح ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ **والمقصود منه زيادة تأكيد الترغيب فى الطاعات السابقة ، ورأسها الاعتصام بالله ،** ويمكنك إبصار ذلك فى قول العلامة ابن عاشور : «وفرع عليه ـ أى على قوله ﴿هو مولاكم﴾ ـ إنشاء الثناء على الله ، بأنه أحسن مولى ، وأحسن نصير . . . **وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله ـ تعالى ـ وحسن نصره** ، وبذلك الاعتبار حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به[2]» .

وقد أبصرت التغاير فى سياق السورتين الكريمتين ، ومعلوم أن الاعتصام بالله ، وإقامة أوامره لا يخلو من مضايقات الضالين ، ومحاربتهم المؤمنين فخص الأمر الأخير بما يؤكد حماية الله عباده ونصره إياهم ، والسياق بذلك يتقارب مع سياق سورة الأنفال ، وفى كليهما شئ من صاحبه من أجل ذلك اتفق أسلوب المدح والذم فى هيئة التركيب فى الموضعين وورد كل منهما فى موضعه لمقصد خاص منه شئ من الآخر .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٥٢/١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٥٣/١٧ .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف قدروه[1] بـ (هو) عائدا على لفظ الجلالة وفى حذفه إشارة إلى تعينه ، وإلى أنه لا يوصف أحد بكمال ذلك غير الله ـ عز وعلا ـ ، وإذا ما كان السرفى تأخيره التشويق إليه ، فحذفه يلهب هذا التشويق .

كأننى أستشعر فى هذا الأسلوب حذفا معنويا لا صناعيا ، ألا تبصر أنه يمكن أن يكون أصل التركيب هو مولاكم فنعم المولى وهو ناصركم فنعم النصير، فدل بالأول على الثانى ، واكتفى به عنه ، ويحمل الأسلوب بالإيجاز، ويكون وراء هذا الحذف إشارة إلى أن كونه ناصرا أمر أثبت من أن يذكر بعد تقرير أنه مولى ، إذ النصر من صفات المولى ، وفى ذلك زيادة فى الترغيب وإعلاء للتطمين .

قال تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ (الصافات / ٧٥) . هذا هو الموقع الوحيد من قصة سيدنا نوح عليه السلام ـ الذى وقع فيه أسلوب المدح ، وقد اقترن أسلوب المدح بالفاء ، وهى فاء «تفريع على نادانا ، أى نادانا فأجبناه ، فحذف المفرع لدلالة فلنعم المجيبون عليه ، لتضمنه معنى (فأجبناه) جواب من يقال فيه نعم المجيب»[2].

وهذا أسلوب فى البناء عجيب ، إذ الفاء عطفت جملة المدح على محذوف تقديره (فأجبناه) وفى حذفه آية على سرعة الإجابة ، حتى كأنه لم يكن هناك أدنى فرق زمنى بين النداء والإجابة ، وذلك مما يدل على عظمة المجيب ، ويستوجب مدحه ، من أجل هذا النظم جاء أسلوب المدح أضف إلى ذلك أن سرعة الإجابة بهذه الطريقة فيها تخويف للمشركين وتهديد

---

(١) أنوار التنزيل ٣/٣٩٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٣٠ .

للكافرين ، وتطمين للمؤمنين ، ولعل ذلك هو الغرض من سوق أسلوب المدح ، وقد جاء بصيغة الجمع المفيد هنا التعظيم ، وهو يتساوق مع تخويف الكافرين إشعاراً لهم بقوة الانتظام ، وشدة الأخذ ، وفيه أيضا تطمين للمؤمنين .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف كما ذكر العلماء [1]، وهو مقدر بضمير جمع (نحن) للتعظيم ، وفى حذفه إشارة إلى تعينه ، وتفرده ، وأنه لا أحد مثله فى سرعة الإجابة ، وقوة الأخذ ، وفى تأخيره تشويق إليه والأسلوب كله مشحون بالمؤكدات التى منها اللام فى (فلنعم) ، وكل هذا كما يقصد منه تحذير المشركين ، يدل أيضا على شدة إعراض قوم نوح ـ عليه السلام ـ التى استوجبت سرعة الأخذ وقوته .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٦٤ ، أنوار التنزيل ٤/ ١٥٧ ، إرشاد العقل السليم ٧/ ٨٩ ، إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٠٧ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠ / ٣٥٦ .

قال تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾ (الذاريات / ٤٧ ، ٤٨)

وقعت الآية الكريمة عقب تلخيص لأحوال الأمم السابقة ، وفيها يظهر قهر الله أعداءه ، وتدميرهم لما عصوا رسله ، ثم بدأ بالآية السابقة على أسلوب المدح بذكر امتنانه على عباده ، ثم وقع أسلوب المدح بالفاء ، وقد ذكر ابن عاشور أنها للتفريع [1]، وقد جاء فاعل (نعم) مجموعاً للتعظيم ، المتناسب مع إظهار الامتنان والقدرة ، مما يلزم عنه إثارة العباد إلى شكر الله ـ عز وعلا ـ **والظاهر أن إظهار ـ الامتنان هو المقصود من سوق أسلوب المدح** ، والمخصوص بالمدح محذوف ، قدروه (نحن[2]) ، وفى حذفه إلماع إلى تعينه ، ودلالة على أنه لا يمكن أن يفرش الأرض ولا يمهدها إلا واحد هو الله ـ عز وعلا ـ وفى تأخيره تشويق ، وفى حذفه إثارة للانتباه .

قال تعالى : ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ـ إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (المرسلات / ٢٠ : ٢٣) .

أسلوب المدح جاء عقب الآيات التى تتحدث عن تدمير الكون عند قيام الساعة ، وعند الفصل ، وجاءت فى سياق استفهام تقريرى يكشف عن قدرة الله على عباده ، قياسا للغائب على الشاهد ، فإن من قدر ابتداء قدير انتهاء ، وقد وقع أسلوب المدح بفاء التفريع ، أى « تفريع إنشاء ثناء [3]» وليس المقصود الثناء هنا لذاته ، **وإنما المقصود من سوقه ـ والله أعلم ـ التنويه**

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٧ .

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٣٩٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٤٣٢ .

بقدرة الله تخويفا للعاصين ، وتهديدا لهم . هذا ما يظهر من جماع السياق فى سورة المرسلات .

وقوله ـ سبحانه ـ (فنعم القادرون) يحتمل معنيين ، إما أن يكون معناه فنعم المقدرون ، وإما أن يكون : فنعم القادرون عليه ، وقد رجح العلماء الأول [1]، والذى أبصره أن المعنيين مرادان هنا ، فالأول لقرب السياق الدال عليه ، من حيث الحديث عن تخليق الإنسان (ألم نخلقكم) ، والثانى مستنبط من تحدر السياق من أول السورة ، فإذا ما كان الله قديرا على طمس النجوم ، ومزج السماء ، ونسف الجبال ، فهو على الإنسان أقدر ، لأن الأئمة لا يذكرون معنى إلا تأسيسا على دواعى السياق وتحدر الكلام ، فالتركيب لموقعه ـ فيما أبصر ـ يراد به المعنيان .

وقد جاء فاعل (نعم) بالجمع ، تعظيما ، وتناسبا مع إظهار قدرة الله تخويفا للعاصين ، وقد ذكروا أن المخصوص بالذم محذوف تقديره : (نحن[2]) ، إلماعا إلى تعينه ، وأنه لا يمكن أن يمدح بذلك سواه ، وفى تأخيره تشويق إلى ذكره .

---

(١) روح المعانى ٢٩/١٧٤ .

(٢) أنوار التنزيل ٤/٥٩٨ .

أسلوب المدح فى سياق الحديث عن الكريمين سليمان وأيوب . عليهما السلام

قال تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ (ص/ ٣٠).

هذا هو الموضع الوحيد فى قصة سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ الذى ورد فيه أسلوب المدح ، ولعله ورد فى هذه السورة ، ولم يرد فى سواها ، لأن لها اختصاصات بقصة سيدنا داود وسيدنا سليمان ـ عليهما السلام ـ لم ترد فى غيرها ، وأوسعها قصة الخصم ، وقصة الصافنات الجياد ، وقصة الفتنة ، كذلك مما اختصت به هذه السورة فى قصتيهما «ووهبنا لداود سليمان» **فكأن أسلوب المدح ورد زيادة تأكيد للامتنان ، ألا تراه جاء فى سياق قوله تعالى** لداود ـ عليه السلام ـ ﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ (ص/ ٢٥) ، وقوله من قبل : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص/ ٢٠) ألا ترى أن الولد الممدوح خير من يشد الله به الملك للوالد ، ولا ترى شيئا من هذا فى سياقات القصة فى المواضع الأخر .

ولا تستطيع بحال أن تعلل لمجئ أسلوب المدح بأنه إنما مدح لنبوته ، لأن كل نبى جامع للممادح ، ولكن السياق هو الذى اقتضى ورود هذا الأسلوب كما حاولت تبيانه .

وشئ آخر وراء هذا الأسلوب فقوله : ﴿ نعم العبد ﴾ بهذا الوصف خاصة «العبد» وإيقاعه فاعلا لنعم ، ودلالته المفيدة أنه جامع لممادح هذا الجنس، ألا ترى أن كل ذلك يشعر بتمام رضا الله عنه ، وهذا مما يعلى من تأكيد الامتنان لداود ـ عليه السلام .

والمخصوص بالمدح هنا محذوف كما ذكروا [1]، وفى تأخيره تشويق ،

---

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٨١ ، زاده على البيضاوى ٤/ ١٨١ ، روح المعانى ٢٣/ ١٨٩ ، التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

لأن المسند حين يكون أمرا طيبا تتلهف النفس إلى معرفة صاحبه ، وفى حذفه إشارة إلى تعينه ؛ جريا على طريقة السياق فى تأكيد الامتنان على داود النبى - عليه السلام - .

قال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾ (ص/ ٤١ : ٤٤) .

هذا أبسط موضع لقصة سيدنا أيوب - عليه السلام - فى الذكر الحكيم ، وقد ورد ذكر قصته فى سورة الأنبياء ببسط أقل من هذا الموضع «وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين» (الأنبياء/ ٨٣، ٨٤) .

وقد اشترك الموضعان فى أصول القصة العامة لمرض هذا النبى ، ثم تفردت كل سورة بخصائص تتناسب وسياقاتها ، خذ من ذلك مثلا طريقة الدعاء ، وطريقة الإجابة فى الأنبياء (أنى مسنى الضر) فى ص (أنى مسنى الشيطان) ولا شيطان مسه لعصمته لكنه أدب النبوة فى الدعاء ، ما من ريب أنك تحس أن نبرة الدعاء الكاشفة عن شدة تألم الداعى ، أعلى فى سورة (ص) ألا تراه قال : (بنصب وعذاب) أما فى الأنبياء فذكر أنه قد أصابه «الضر» ثم تلطف فقال : «وأنت أرحم الراحمين» .

من أجل هذا الفرق الذى لخصته على وجه السرعة ، جاء الجواب فى الأنبياء بالفاء (فاستجبنا له) وهى تفيد التعقيب ، وتكشف عن الإسراع بالجواب، والأسرع منه ألا يوجد حرف أصلا «أنى مسنى الشيطان بنصب

وعذاب اركض برجلك ...» وهذا غير سورة الأنبياء رغم تعاقب الفاءين (فاستجبنا ، فكشفنا) .

ومن تمام رضا الله عن صبر نبيه على الابلاء ، لم يشأ أن يترك لنبيه أدنى ما يحزنه «وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث» ، وهذه ليست فى سورة الأنبياء ، ثم أعقب ذلك جملة تعليلية ، وما أغناه عن التعليل ، غير أن الحق أوردها كشفا عن تمام الرضا على هذا النبى الصابر ، ثم جاء أسلوب المدح مضيفا زيادة تأكيد إلى هذا المقصد ، **فالمقصود من أسلوب المدح زيادة إظهار ـ تمام الرضا** ، وسبق الحديث فى الآية الماضية فى الفاعل والمخصوص بالمدح .

أسلوب المدح فى سياق الحديث عن ثواب المؤمنين

قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (آل عمران / ١٣٥ ، ١٣٦) .

ورد الحديث عن ثواب المؤمنين فى ثمانية مواضع فى الذكر الحكيم ، تناولته حسب تقارب التراكيب فى أسلوب المدح ، فكان ترتيبها على النحو الذى ترى .

وقد وقع مدح أجر العاملين هنا وفى العنكبوت وفى الزمر ، وقد وقعت كلها بنعم ،غير أن الأسلوب وقع هنا بالواو ، وفى العنكبوت من دون واو ولا فاء ،وإن كان قد قرئ هناك بالفاء ، وفى الزمر وقع بالفاء ، على هذا النحو:

(ونعم أجر العاملين) آل عمران ، (نعم أجر العاملين) العنكبوت ، (فنعم أجر العاملين) الزمر ، وسنحاول استنباط وجه لهذا النظم ، فإن وفقنا فبها ونعمت ، وإلا فأسأل الله أن يبصر غيرى .

الظاهر هنا أن تحدر السياق وجريان الأسلوب يسعيان إلى أسلوب المدح، ويطلبانه ، وذلك أن القرآن العظيم تحدث عن المتقين وأجرهم ، ثم ذيل جزاءهم بقوله ﴿والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران / ١٣٤) ثم ذكر من بعدهم المتداركين لتقصيرهم (والذين إذا فعلوا فاحشة . . .) .

وذكر هذه الأوصاف ، مقابل أوصاف المتقين ، تشعر بقلة جزاء المتداركين **لذا جاء أسلوب المدح مضيفا زيادة تأكيد على قبول التائبين ، هذا هو المقصود من أسلوب المدح فيما أبصر .**

وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن جملة المدح وقعت تذييلا لإنشاء مدح الجزاء ، وذكر أيضا أنها معطوفة على قوله : ﴿أولئك جزاؤهم﴾ ، وقال : وهو من عطف الإنشاء على الأخبار ، وهو كثير فى فصيح الكلام [1].

نعم الجملة واقعة موقع التذييل ، غير أن الأولى أن تكون الواو استئنافية ويكون المراد التأكيد على جزاء التائبين وقبولهم ، وهذا الموقع هو الذى جعل جملة المدح هنا تأتى بالواو ، أما فى سورة العنكبوت فالسياق هناك لا يفتقر إلى الواو ، بل عدم وجود الواو فى العنكبوت هو الأبر بالمعنى والسياق ، لأن جملة المدح هناك بينها وبين ما قبلها كمال اتصال إذ هى مسبوقة هناك بقوله : ﴿ لنبوأنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾ (العنكبوت / ٥٨) فبين جملة المدح - وهى إنشائية لفظا ومعنى ، وجملة القسم - وهى إنشائية لفظا ومعنى ، كمال اتصال ، إذ الثانية كأنها تأكيد للأولى ، ومن المعلوم أن (لنبوأنهم) جواب قسم محذوف ، إذ الفعل المضارع مؤكد بالنون هنا وجوبا لوقوعه جواب قسم مقدر ، مقترن باللام ، غير مفصول بينه وبين لام القسم بفاصل ، دال على الاستقبال .

فجملة المدح فى الموقعين تفيد التأكيد على ما سبق من المعنى ، وما فى آل عمران جاء بالاستئناف ، والاستئناف أكثر دلالة على التأكيد من كمال الاتصال ، وكل لاءم سياقه ، ووافق مقامه .

أما مجيئه بالفاء فى سورة الزمر ، فيبدو أن المراد هناك ترتب المدح من المؤمنين على ما أثيبوه ، لأن السياق هناك حديث بعد دخولهم الجنة فاختلفت السياقات لاختلاف المقامات . فآل عمران حديث عن التائبين اقتضى مزيد تأكيد ناسبه استئناف أسلوب المدح ، والعنكبوت حديث عن المؤمنين العاملين

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٩٥ .

الصالحات ، فناسبه كمال الاتصال ، والمقام والسياق فى الزمر للحامدين الساكنين جنات النعيم فلم يحتج إلى توكيد ، هذا ما حاولت إبصاره فالله أعلم .

ولنعد إلى الآية الكريمة بعد هذا الاستطراد ، الذى دلنى على أن السياق هو الذى طلب أسلوب المدح واقتضاه إلى أقوال الأئمة ، فقد قال البيضاوى عند قوله تعالى : ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ «لأن المتدارك لتقصيره ، كالعامل لتحصيل بعض مافوت على نفسه ، وكم بين المحسن والمتدارك ، والمحبوب والأجير ، ولعل[1] تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة»[2] وذكر الشيخ زاده أن الجزاء والأجر مترادفان والسياق يرضى ما ذكره البيضاوى ، ويأبى ما ذكره الشيخ زاده ، لأن استنباط الشيخ البيضاوى يؤيده ما ذيل به جزاء المتقين (والله يحب المحسنين) فكل تذبيل لاءم سياقه .

وقد ذكر الشيخ أبو السعود كلاما طيبا يتأيد به كلام القاضى حيث يقول : «وناهيك مضمونها دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت كثير ، والتباين البين ، شنان ما بين المحسنين الفائزين بمحبة الله - عز وجل - وبين العاملين الحائزين لأجرتهم وعمالتهم» [3].

وشئ آخر وراء اصطفاء (أجر) فاعلا لنعم ، هو أن الشك إليه أسرع ، لأن الحديث منصب على مرتكبى الفواحش للتأكيد ، فكان وقوعه فاعلا أدفع للشك وآكد للثواب ، وفى إضافة أجرا إلى العاملين مدح لهم أيضا ، يتناسب والسياق المتظاهر على إشعارهم بقبولهم عند ربهم .

---

(١) أنوار التنزيل ١/ ٦٧٢ .

(٢) زاده على البيضاوى ١/ ٦٧٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٨٦ .

وقد ذكروا أن المخصوص بالمدح محذوف [1]، وفى تأخيره تشويق إلى ذكره وفى حذفه إلماع إلى تعينه بعد التشويق إليه ، مما يدفع إلى العودة إلى السياق للبحث عنه ، والشئ إذا نيل بعد التعب أقعد فى النفس منه ، إذا ورد من غير تعب ، وذلك كله يتعاون فى التأكيد على أجر التائبين ، والتظاهر على زيادة إظهار قبول الله التائبين ، تناسبا مع سعة رحمته ، وفتحا لباب التوبة ، وإغلاقا لباب اليأس من روح الله . ولعلك تلحظ ما فى إسناد المدح إلى الأجر من الدلالة على عظمته وعلوه . **ويمكن أن يكون المقصود إغراء العصاة على التوبة .**

قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوأنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴾ (العنكبوت / ٥٨) .

ذكر ابن عاشور أن جملة ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ إنشاء ثناء وتعجيب على الأجر الذى أعطوه ، فلذلك قطعت عن العطف ﴾ [2]، وبين الجملتين كمال اتصال كما سبق ذكره ، وواضح أن السياق هنا للإغراء على عمل الصالحات ، وأن أسلوب المدح أضاف زيادة إلى هذا الغرض ، فيكون الغرض منه زيادة الإغراء على عمل الصالحات ، والحديث عن الفاعل ، ودلالته كالحديث فى الآية السابقة ، وألحظ تناسب فاعل نعم مع السياق ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فذكر الأجر تناسب مع ذكر العمل قبلا ، وقد ذكر العلماء هنا أيضا أن المخصوص بالمدح محذوف [3]، وكل ذلك مما يتناسب وقصد الإغراء .

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٦١ ، إرشاد العقل السليم ٢/ ٨٦ ، روح المعانى ٤/ ٦٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣ .

(٣) أنوار التنزيل ٤/ ١٧ ، إرشاد العقل السليم ٧/ ٤٤ زاده على البيضاوى ٤/ ١٧ ، روح المعانى ٢١/ ١١ .

وقد قرئ هنا (فنعم) ، وقد ذكر الشيخ زاده : أن الفاء لعطف الجملة على الجملة التى قبلها ، لا لتفيد أن مضمون الجملة التى بعدها واقع عقيب مضمون الجملة التى قبلها من غير أن يتخلل بينهما زمان فاصل ، كما فى نحو: قام زيد فقعد عمرو ، بل هى للدلالة على أن المذكور بعدها كلام مرتب على ما قبلها فى الذكر ، لا أن مضمونها عقيب مضمون ما قبلها فى الزمان[1]» أى أن الفاء للترتيب .

وهذا يرشح لما ذكرته قبل ذلك من افتقار السياق إلى التوكيد هنا ، ليس كافتقار سياق تركيب آل عمران .

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ (الزمر / ٧٣ ، ٧٤) .

بنى السياق هنا على التقابل بين جزاء الكافرين ، وجزاء المؤمنين لذلك ترى أسلوب المدح مقابلا تماما لأسلوب الذم (فبئس مثوى المتكبرين) (فنعم أجر العاملين) ، وقد جاءت ، أقوال المتقين عقيب دخولهم الجنة متعاقبة متتابعة كاشفة عن إظهار المتقين الرضا عما أثيبوا ، ثم جاء أسلوب المدح خاتمة ذلك ، والمقصود من إيراده ـ فيما يظهر ـ زيادة إظهار تمام الرضا ، وقد ذكروا هنا نكتة فى فاعل (نعم) قال الآلوسى : «ولعل التعبير بأجر العاملين دون أجرنا للتعويض بأهل النار أنهم غير العاملين[2]» وذلك لأن الكلام جاء على خلاف الظاهر ، حيث كان التعبير للضمير ، فوضع الظاهر موضع المضمر .

---

(١) زاده على البيضاوى ٤/١٧ .

(٢) روح المعانى ٢٤/٣٥ .

وهو مشعر أيضا بعنوان التواضع ، إذ ورد فى مقابل (المتكبرين) فعنوان التواضع العمل .

وشئ آخر وراء وضع الظاهر موضع الضمير ذكره البقاعى ، أنه قال ذلك ؛ «ترغيبا فى الأعمال ، وحثا على عدم الاتكال» وكلها نكات تتلاقى وتتآخى ولا تتعارض ، وهذا من ثراء التعبير القرآنى ، والمخصوص بالمدح هنا محذوف لدلالة السياق عليه ، وفى تأخيره تشويق ،وفى حذفه إلماع إلى تعينه.

ويبدو أن الفاء هنا لمطلق الترتيب ، دون أن يكون لها دلالة الفارق الزمنى .

قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا .أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ (الكهف / ٣٠ . ٣١) .

الأسلوب هنا مبنى على المقابلة ، لأن وعد الصالحين جاء عقيب وعد الكافرين وفى وعيد الكافرين نبه على بشاعة عقابهم بقوله : ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ وقابل به وعد الصالحين بقوله : ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ .

والملحوظ أنه فى وعيد الكافرين ذم الشراب والمرتفق ، وذلك لأن الشراب هو أدنى سد الحاجة ، أما فى وعده الصالحين مدح كل الثواب ، وقد جاء أسلوب المدح بعد تعداد لأنواع الثواب ، وكلها مبهرة شكلا وروحا ، ثم أعقبها بما هو أجمع للمدح ، **إغراء للمؤمنين ، وإغاظة للكافرين** كما ينبئ عنه أسلوب المقابلة ، وفى إسناد الفعل (نعم) إلى الثواب مبالغة تكشف عن تناهى الثواب فى المدح ، فإذا ما كان الثواب ممدوحا بهذا الأسلوب فنعم المثاب

أيضا، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة السياق عليه ، وللإلماع إلى تعينه ، وفى تأخيره تشويق إلى ذكره ، وفى حذفه إلماع إلى أن هذا الثواب ، أصبح متعينا للصالحين وأن ذلك أمر ذائع مشتهر لا يحتاج إلى نص ، هذا ما يشير إليه الحذف وفيه من إغراء المؤمنين ما فيه ، ومن إغاظة الكفار ما فيه .

ثم عطف على أسلوب المدح أسلوبا آخر ، وهذا هو الموضع الوحيد فى المدح الذى عطف فيه ما يجرى مجرى نعم على نعم، وكأنه مدح للخاص بعد المدح العام ، لإيلاء الممدوح الثانى مزيد اهتمام ، وفيه كشف عن الفرق بين ما هو أصلى فى المدح وما هو محمول على الأصل ، والمرتفق هنا جار على حقيقته ولكن أترى معى أن العجب لا ينقضى من جمال هذا البناء وجلاله ، ألا تراه يشعر بأن الجنة كلها بهذه الأوصاف صارت متكأ للمؤمنين ، أى مكان منها شاءوا الاتكاء اتكأوا ، وإنما أولى الذكر الحكيم المرتفق مزيد اهتمام ، لأنه كاشف عن تمام السعادة ، وزيادة الراحة ، فمن الممكن أن تحلى الأساور والذهب ، وترتدى الثياب الخضر من السندس والإستبرق ، وليس لك من راحة البال نصيب ، فخصه الذكر الحكيم بالمدح لما فى ذلك من الدلالة على راحة المؤمنين فى الجنة ظاهرا وباطنا ، حسنا ومعنى . ولك أن تتأمل جمال الأسلوب بالنظر إلى ضده فى السياق .

ويمكن أن يكون فى كلام الشيخ البقاعى كشف عن علة اختصاص المرتفق بمزيد مدح ، إذ يقول : « ثم مدح هذا فقال تعالى ﴿ نعم الثواب ﴾ أى هو لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم ، فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله - تعالى - وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : ﴿ وحسنت أى الجنة كلها ، وميز ذلك بقوله تعالى (مرتفقا) [1]﴾ ومرتفقا تمييز ، والفاعل ضمير

(١) نظم الدرر ٤/٤٦٦ .

مستتر ، والمخصوص بالمدح محذوف ، وفى الحذف إيجاز ، وفى التقدير إطناب للإيضاح بعد الإبهام ، وهذان الموضعان (المدح والذم) هما اللذان ذكر فيهما المرتفق فى الذكر الحكيم ، وأنت تبصر بهذا التقابل أن الجنة كلها مرتفق للمؤمنين لا أى مرتفق بل أحسن مرتفق وأعجبه ، لما فى حسن من إنشاء المدح مع تضمن التعجب ، كما سبق بيانه فى التمهيد ، على أن ذلك كله فى مقابل انتفاء المرتفق بالنسبة للكافرين .

قال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان/ ٧٤:٧٦)

جاء أسلوب المدح استجابة لدعاء عباد الرحمن ، تناغما معه ، وتلاؤما مع طريقته من قبل ، وذلك فى قولهم - فيما يحكيه ربنا - ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان/ ٦٥ ، ٦٦) .

وقد أبصرت أن حسنت هنا جاءت مقابل (ساءت) وكلاهما محمول على أم الباب ﴿نعم وبئس) ، فلم تكن (نعم) لتأتى فى مثل هذا السياق وهذا تلاؤم فى السياق بديع لن تجد سواه فى الذكر الحكيم ، وقد كانت دعوة عباد الرحمن شاملة جامعة ﴿ساءت مستقرا ومقاما ﴾ فكان الجواب كذلك أيضا شاملا جامعا ﴿حسنت مستقرا ومقاما ﴾ من أجل ذلك قال علماؤنا هنا ﴿ وحسنت مقابل ساءت ﴾ [١]، ولا يكادون يختلفون هنا أن حسن مستعملة استعمال (نعم).

قال البقاعى : « ودل على علو أمرها وعظيم قدرها ، بإبراز مدحها فى

---

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٤٦٣ ، روح المعانى ١٩/ ٥٤ .

مظهر التعجب ، فقال : (حسنت) أى ما أحسنها مستقرا ، أى موضع استقرار، ومقاما أى موضع إقامة[1] ، وقد أجراهما على أنهما اسما مكان ، وإذا ما كان المكان قد حظى بهذا الوصف ، وتحلى بهذا الحسن ، فما أحسن ساكنيه ، وما أطيب قاطنيه .

ويمكن أن يكون المقصود من إيراد أسلوب المدح هنا **إغراء المؤمنين بالدعاء ، وتحريضهم على الاتباع ، أو الدلالة على أمر الجنة وعظيم قدرها .**

والفاعل محذوف ، وهو ضمير مستكن مفسر بما بعده ، ومستقرا ومقاما تمييز والمخصوص بالمدح محذوف إلماعا إلى تعينه ، وفى هذا زيادة إغراء لعباد الرحمن لما فى بناء الأسلوب من الدلالة على اشتهار أجرهم ذاك ، وذيوع ثوابهم ، لدرجة جعلته متعينا محددا ، ثابتا فى العقول لا يحتاج إلى نص .

قال تعالى : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (الرعد/ ٢٢،٢٣،٢٤) .

سياق سورة الرعد بنى على التقابل ، والكشف عن التباين بين عقبى المؤمنين وعقبى الكافرين ، وقد جاء أسلوب المدح خاتمة صفات للمؤمنين ، من وفائهم بالعقد ، وعدم نقضهم الميثاق ، وصلة الرحم ، وخشية الله ، وخوف سوء الحساب ، والصبر ابتغاء وجه الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق ، ودرء

---

(١) نظم الدرر ٥/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

السيئة بالحسنة ثم ختم ذلك بالتمهيد لحسن جزائهم ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾، ثم ذكر الجزاء ، ثم ختمه بأسلوب المدح ﴿فنعم عقبى الدار﴾ وتلحظ هنا أن فاعل (نعم) يتلاءم مع السياق قبله ، والسياق بعده ، أما ما قبله فقد سبق ذكره، وأما ما بعده فقوله تعالى : ﴿أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ (الرعد/ ٣٥) .

وتكرار لفظ (عقبى) من خصائص السورة الكريمة ، فقد ذكرت فى السورة ست مرات ، وذكرت فى سورة الشمس مرة واحدة فى سياق غير هذا تماما ، وهذا مما يجعل لفاعل نعم تميزا خاصا ، لا يوجد فيما يقاربه من الأساليب .

المهم أن أسلوب المدح جاء عقب الحديث عن جزاء المؤمنين ، وقد ذكر العلامة ابن عاشور أن الفاء للتفريع ، لأن ما بعدها تفريع ثناء على حسن عاقبتهم[1]﴾ .

وقد أحسنوا الصنيع فى الدنيا ، فأعقبهم الله مآلا جامعا للممادح فى الآخرة ، ومقابلة مآل الكافرين : ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ (الرعد/ ٢٥) ، وفاعل نعم هنا قوله (عقبى) وإذا ما كان المآل جامعا للمدح وكان مضافا إلى الدار الآخرة ، فإن هذا التركيب يدل على أن هذا المآل أجمع للمدح ، فى حسابهم ، وفى موقفهم ، وفى قبرهم ، وفى ثوابهم ، فيلقون الخير من أول منازل الآخرة (فى القبر) إلى آخرها وهو دخولهم الجنة ، وهذا الموضع من أساليب مدح ثواب المؤمنين ، وموضع سورة النحل ، أشمل مواضع الحديث عن مدح ثواب المؤمنين ، **والقصد من وراء سياقة أسلوب**

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ١٣٢ .

المدح عقيب جزائهم هو إغراء المؤمنين بالاتباع ، وتبشيع طريق الكافرين .

والمخصوص بالمدح محذوف ، والتقدير : فنعم عقبى الدار عقابكم ، وفى تأخيره تشويق إليه ، مما يمكنه فى النفس ، وفى حذفه علاوة على الإيجاز، الإلماع إلى أن عقبى المؤمنين تعينت أنها خير عقبى ، وأن ذلك أصبح ظاهرا واضحا لا يحتاج إلى نص .

قال تعالى : ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين﴾ (النحل/ ٣٠) .

وقعت الآية الكريمة مقابلة لعقاب المتكبرين ، قال تعالى : ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ (النحل / ٢٨ ، ٢٩) .

والملحوظ أن أسلوب المدح هنا وقع جواب قسم ، فتأكد المدح على توكيده الذى تؤديه دلالة الأسلوب ، ولا إشكال فى الواو هنا ، إذ الجملة واقعة جواب قسم ، معطوفة على جواب قسم ﴿ولدار الآخرة خير﴾ والواو الأولى استئنافيه لتأكيد المدح ، فجاء أسلوب المدح تأكيدا بعد تأكيد ، وأكد هو الآخر بالقسم ، ثم تأمل إسناد (نعم) إلى دار ، وما فيه من التجوز الدال على شيوع المدح وعمومه المكان كله ، حتى نطق بالخير ، وفى إضافة الفاعل إلى (المتقين) إشعار بعنوان العمل ، تتمة للتقابل مع ضده (مثوى المتكبرين) .

وقد ذكروا نكتة فى تسمية الجنة داراً ، هى أن فى التسمية بذلك مدحا لأهلها [1]، وإنما دلهم على ذلك ضد المتقين ، فقد علل ابن عاشور لعدم

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٨٧ ، أنوار التنزيل ٣/ ١٧٦ ، التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٣ .

مجئ الدار فى جنب المتكبرين ، والتعبير بالمثوى ، بأن فى عدم التعبير بالدار وتحقيرا لهم ، وأنهم ليسوا فى جهنم بمنزلة أهل الدار ، بل هم متراصون فى النار ، وهم فى مثوى أى محل ثواء [1]، وهذه طريقة علمائنا فى الاستضاءة بالسياق فى استكشاف بلاغة الذكر الحكيم .

وقد ذكروا أيضا نكتة وضع المظهر موضع المضمر ، لأن التعبير للمتقين، والأصل : ولنعم دارهم ، لأن فى الإظهار إشعار بعلية الجزاء ، وإن كان ربنا لا تعلل أفعاله ، غير أن هذا الطريق منه ترغيب فى التقوى واتباع المتقين ، تأمل قول البقاعى فى هذا الصدد : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ أى هى ، مرغبا فى الوصف ، الذى كان سبب حيازتهم لها ، وهو الخوف المنافى لما وصف به الأشرار من الاستكبار ، بإظهاره موضع الإضمار ، وحذف المخصوص بالمدح لتقدم ما يدل عليه ، وهو صالح لتقدير الدنيا ، أى لمن عمل فيها بالتقوى ، ولتقدير الآخرة وهو واضح ﴾[2].

وقد أجاز أبو السعود أن يكون المخصوص ﴿ جنات عدن . . . [3]﴾ (النحل / ٣١) .

أما تقديره بالدنيا عند القول بحذفه ـ كما قال البقاعى ـ فبعيد ، لأن مقابله يأباه وفى تأخير المخصوص تشويق إلى ذكره ، وفى حذف إلماع إلى ذيوعه وشهرته وتعينه **والظاهر أن أسلوب المدح يقصد منه زيادة الترغيب فى التقوى ، والتحريص عليها .**

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٠ .

(٢) نظم الدرر ٤/ ٢٦٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ١١٠ .

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (النساء/ ٦٩) .

هذه الآية الكريمة تنادى على قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (النساء/ ٥٩) .

وتتواصل مع قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله . . . ﴾ (النساء / ٦٤) .

وقد وقعت الآية الكريمة محل الشاهد عقيب الحث المتحدر فى السياق على طاعة الله ـ سبحانه ـ والرسول ـ ﷺ ـ ، وهى تكشف عن جزاء خاص للطائعين وقد ختمت بأسلوب المدح ﴿وحسن أولئك رفيقا ﴾ **وهذا الأسلوب مع ما فيه من قصد زيادة إيناس الطائعين برفقة المصطفين من خلق الله، مع ما فى أسلوب المدح من ذلك ، فيه مقصد آخر ، وهو زيادة الترغيب فى الطاعة** ، وتميز هذا الأسلوب وتفرده ، إنما يرجع للسياق الذى ذكرت لك طرفا منه ، وبوسعك الرجوع إلى السورة الكريمة لمتابعة السياق من أول السورة الكريمة ، وما فيها من الأوامر الشاقة ، والنواهى القاتلة للذات والمميتة لشهوات النفس .

وما ذكرته من المقصد من الأسلوب منقول عن الأئمة ، قال البيضاوى فى (ومن يطع الله . . .) **مزيد ترغيب فى الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق ، وأعظمهم قدراً**[1]﴾ ووسع الشيخ زاده قوله فقال : « فإنه ـ تعالى ـ أمر بطاعة الله ، وطاعة رسول الله بقوله : ﴿وأطيعوا الله . . .﴾ ثم

(١) أنوار التنزيل ٢/٤٨ ، ٤٩ .

زيف طريقة المنافقين ، ثم أعاد الأمر بطاعة الرسول بقوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع . . .) ورغب فى تلك الطاعة بإيتاء الأجر العظيم، وهداية الصراط المستقيم بسببها ، **ثم أكد ذلك الترغيب بأن وعد عليها مرافقة أكرم الخلائق** [1]» .

وقد كشف الأئمة عن الغرض بحديثهم عن موقع الجملة الكريمة فقال : ﴿تذييل مقرر **لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق** [2]﴾ وعليه قالوا الواو استئنافية، والاستئناف هو الألصق بغرض التوكيد . وبهذا نخرج من الخلاف فى عطف الإنشاء على الخبر .

ما من ريب أنك تبصر براعة الأئمة فى استنطاق دلالة الأساليب بالسياق، وأن السياق ذو أثر بالغ فى تحديد دلالة مقاصد الأساليب .

والظاهر أن (حسن) يراد بها هنا المدح ، ويجرى عليها أحكام نعم ، وهى تفيد المدح ، وتتضمن التعجب ، وقد ذهب جماعة إلى أنها هنا تفيد التعجب واستدلوا لذلك بقراءة (حسن) بسكون السين[3] ، لكن دلالتها على المدح ألصق بالسياق للتحدر الذى ذكرته قبل ذلك ، وكأن أسلوب المدح يشكل ذروة الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، ثم إن المدح يتضمن التعجب ، ولا عكس لذا ذكر ابن عاشور إلى أن (حسن) جارية مجرى (نعم[4]) ، وعليه فأولئك فاعل ، وفى تعريفه باسم الإشارة للبعيد تعظيم ، ورفيقا تمييز ، وفى تأخير المخصوص تشويق له ، وفى حذفه إلماع إلى تعينه ، وأنه قد صار من الذائع المشتهر الذى لا يمارى أنه لا يحظى برفقة أولئك الأخيار إلا الطائعون .

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ٢/٤٨ ، ٤٩ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٢/١٩٨ ، روح المعانى ٥/٧٨ .

(٣) الكشاف ١/٥٣١ . نظم الدرر ٢/٢٧٧ .

(٤) التحرير والتنوير ٥/١١٦ .

الفصل الثانى

من أسرار أسلوب الذم فى الذكر الحكيم

كثر ورود أسلوب الذم فى الذكر الحكيم كثرة فاقت ورود أسلوب المدح بأكثر من ثلاثة أضعاف ، وكذلك تشعبت سياقات ورود هذا الأسلوب ، وقد جمعت الآيات المتقاربة لأدنى ملابسة .

أسلوب الذم فى سياق الحديث عن جرائم اليهود وقبائحهم

قال تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾ (البقرة/ ٨٨، ٨٩، ٩٠) .

سورة البقرة هى أكثر سور الذكر الحكيم كشفا لفضائح اليهود ، ولا توجد سورة توسعت فى فضائحهم كسورة البقرة ، يدانيها فى ذلك سورة المائدة، ومع ذلك ترى أسلوب الذم ورد ثلاث مرات فى سورة البقرة فى سياق الحديث عن اليهود ، وورد فى المائدة خمس مرات ، ملاءمة للسياق فى كل.

وقد جاء أسلوب الذم هنا على سبيل الاستئناف لتأكيد الذم ، ولتبشيع جرائمهم فلقد جاء فى سياق الحديث عن التحريف والتبديل ، وأنهم كانوا يحرفون كلام الله لقاء دراهم معدودات ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيدهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . . . ﴾ (البقرة /٧٩) . من

بعد قصة البقرة والاستسقاء ، والحديث عن نجاتهم ، وبعثهم بعد الموت إلى آخره مما تبصره فى السياق ، والشئ العجيب أنك ترى أن أول أسلوب ذم ورد فى الذكر الحكيم ، فى شأن اليهود ، فهو تقبيح ما بعده تقبيح .

المهم أن أسلوب الذم جاء فى هذا السياق الطويل الذى يعدد مساوئ اليهود ، وقد سبق أسلوب الذم بتكفيرهم «فلعنة الله على الكافرين» وليس بعد اللعن شئ ، وكأن أسلوب الذم جاء من بعد ذلك تأكيدا لطرد اليهود من رحمة الله ، إذ قد جمعوا كل المذام ، وحازوا كل القبائح . وفى أسلوب الذم أيضا تسفيه لرأيهم فى تحريف كلام الله .

والذى له ولع بالدراسات القرآنية يعلم أن المفسرين عند أول موضع فى أى مقصد يرد فى الذكر الحكيم ، يراهم تتكاثر أقوالهم ، وتتعدد آراؤهم ، ومن أجل ذلك اختلفوا هنا فى (ما) التى فى بئس على أقوال متعددة :

أولا : أن ما هنا نكرة تامة بمعنى الشئ ، وعليه فما هى الفاعل ، وجملة (اشتروا به أنفسهم) صفة لما ، وأن يكفروا . . . هو المخصوص بالذم .

ثانيا : أن «ما» موصولة ، وهى فاعل (بئس) وجملة (اشتروا به أنفسهم) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، و ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ المخصوص بالذم ، ويقاربه أن تكون (ما) مصدرية فاعل (بئس) .

ثالثا : أن «ما» فى محل نصب تمييز مفسر لفاعل بئس المضمر ، وجملة ﴿اشتروا به أنفسهم﴾ صفة له ، و (أن يكفروا. . .) هو المخصوص بالذم .

رابعا : أن بئس مع (ما) شئ واحد مثل (حبذا) ، أى أنها برمتها فعل ، أو أنها فعل وما فاعل .

خامسا : وهو أغرب الآراء ، أن ما كفت بئس عن العمل ، وهو بعيد،

لأن الفعل لا يكف لقوته ، وإنما ذلك فى الحروف [1].

وقد لحظت أن الخلاف على ذلك فى تحديد فاعل بئس ، أما جملة ﴿اشتروا به . . .) فلا تخرج عن كونها تابعا ، أما المخصوص بالذم فلا خلاف فى أنه ﴿أن يكفروا . . .﴾ وإنما جاء أسلوب الذم تجاوبا مع السياق الذى ذكرت بعضه ، وقد سبق فى السياق وصفهم بالكفر عدة مرات من ذلك ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ (البقرة/ ٨٥) وقوله : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف (البقرة / ٨٨) وقوله : ﴿ فلعنة الله على الكافرين٦٨بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ (البقرة/ ٨٩) ، وقد جاء المخصوص بالذم امتدادا لهذا السياق ﴿أن يكفروا بما أنزل الله . . . ﴾ كذلك أيضا جاءت جملة ﴿اشتروا ﴾ سواء أكانت صلة لما أم صفة لها ، جاءت امتداداً للسياق أيضا «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . . .» (البقرة/ ٧٩) وقوله : ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . . .﴾ (البقرة / ٨٦) .

بالنظر فى هذا السياق تبصر أن أسلوب الذم جاء تجاوبا مع السياق ، وجاء فى هذا الموقع زيادة تأكيد لشناعاتهم وفظائعهم ، وقد جاءت أركان الأسلوب من روح السياق ، ووقع فاعل بئس هنا (ما) وهى متوغلة فى الإبهام لتشمل كل ما مضى فى السياق من فظائعهم ، أو لأنها أجمع لفظائعهم ، تناسبا مع بئس التى هى أجمع للمذام ، وقد جاءت جملة الصفة أو الصلة ، كاشفة عن خيبتهم وبوار صنيعهم ، ألا ترى أن المعنى يدل على أنهم باعوا أنفسهم وارتضوا الكفر ثمنا لذلك ، فما أذمه بيعا ، وما أقبحه شراء ، وذكر

---

(١) انظر الكشاف ٢٩٦/١ ، مفاتيح الغيب مج ١٨٢/٣ ، ١٨٣ ، أنوار التنزيل ٣٥٠/١، إرشاد العقل السليم ١٢٩/١ ، محيى الدين شيخ زاده ٣٥٠/١ ، روح المعانى ٣٢١/١ ، ٣٢٢ ، فتح القدير ١٤٥/١ ، التحرير والتنوير ٦٠٣/١ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٥٩/١٠ .

المخصوص هنا كما ترى ذروة البلاغة حتى يظهر فى الأسلوب السلعة والثمن ، وذلك أقوى فى التشنيع عليهم ، وأقعد فى تقبيحهم ، والأسلوب فوق ما يفيده من التشنيع عليه ، فيه إيحاء بتحذير المؤمنين أن يتبعوا طريقتهم ، أو ينتهجوا نهجهم ، وارتباط أركان الأسلوب بالسياق على ما عرضت لك من شدة الاعتلاق وقوة الصلة .

وفى تأخير المسند إليه (المخصوص) زيادة فى التقبيح جاءت من بحث النفس عن هذا الذى يجمع كل المذام ، وذكره هنا مما يؤكد تقبيحه أيضا .

وقد ذكر البقاعى لطيفة هنا استنبطها من الإظهار فى موضع الإضمار فى قوله تعالى قبل أسلوب الذم ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ قال : ﴿ ولم يقل فلعنة الله عليهم ، فأظهر فى موضع الإضمار تعليقا للحكم بالوصف ليعم ، وإشعاراً بصلاح من شاء الله منهم ، ولما استحقوا بهذا وجوه المذام كلها ، وصل به قوله : (بئسما) فأتى بالكلمة الجامعة للمذام [1]﴾ وقد ختم الآية التى سيق فيها أسلوب الذم بقوله : ﴿فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴾ أرأيت كيف يصور التعبير تكاثر غضب الله عليهم ، وتراصه وتعاظمه ، فالسياق كله يتظاهر على ذمهم .

ولك أن تقول : إن فى تقديم المسند ﴿ بئس ما اشتروا . . . ﴾ مبادرة بذمهم ، وتعجيلا لمساءتهم ، وفى وقوع جملة الصلة بالماضى (اشتروا) تنديم لهم وتحسير ، وفى التعبير بالمضارع ﴿ أن يكفروا ﴾ كشف عن إحداثهم كفرا بعد كفر بالرغم من أن البيع لأنفسهم قد تم وانتهى ، وكل ذلك مما يكشف عن فظاعة أفعالهم ، وقبح تصرفاتهم لعنهم الله .قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا

---

(١) نظم الدرر ١/ ١٩٥ .

وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (البقرة/٩٣) .

وقعت الآية الكريمة فى سياق أسلوب الذم السابق تعديدا لأنماط كفرهم، وأنماط نقضهم الميثاق ، غير أن هذا الأسلوب يختص عن سابقه ، بأنه مشعر بالتهكم ، وقد جاء ذلك من تسمية صنيعهم هذا إيمانا ﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ ثم يمعن فى التهكم بهم ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، وذلك لأن أسلوب الذم هنا ، وقع عقيب الحديث عن عبادتهم العجل ، ولا أعجب ممن يعبد ما صنعه بيده ، لذا جاء التركيب متظاهرا على التهكم بهم ، وقد اختص هذا السياق بالدلالة على تمكن حب العجل من قلوبهم ﴿ وأشربوا فى قلوبهم العجل ﴾ ولم يقع مثل هذا التركيب فى الذكر الحكيم ، فكأن أسلوب الذم ببئس التى هى أجمع للمذام جاء متناغما مع المسند ﴿ أشربوا ﴾ الدال على شدة تمكن العجل من قلوبهم ، فجاء أسلوب الذم الملئ بالتهكم تجاوبا مع هذا السياق .

وقد ذكر العلماء لطيفة هنا يجب ذكرها ، وذلك فى نمط الأسلوب ، فأسلوب الذم معلوم أنه يبنى على التفسير بعد الإبهام ، أو الإيضاح بعد الإبهام، وقد جاء تجاوبا مع نمط الأسلوب السابق ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ .

يقول الشيخ زاده : فإن هذا التعبير يدل على التمكين والرسوخ المستفاد من الظرفية ، وعلى أن فرط حبهم له بلغ إلى حيث صارت صورة العجل متمكنة راسخة فى قلوبهم ، غير زائلة عنها ، وإن زالت حقيقته العينية ، وذاته الجسمية ، ولا يخفى أنه أبلغ فى الدلالة على إشراب قلوبهم الحب ، ثم إنه لا يخفى أن محل الحب هو القلب ، فكان الظاهر أن يقال : وأشربت

قلوبهم حب العجل ، إلا أنه سلك طريق الإبهام فى التفسير ، حيث أبهم فكان الإشراب ، بإسناده إلى الكل ، فإنه يدل على أن شيئا ما فى الكل أشرب الحب ، وتداخل هو فيه ، إلا أنه لا يدرى بخصوصه أى شئ هو ؟ ففسر ذلك الشئ بقوله : (فى قلوبهم) ، ولا يخفى أن تبيين الشئ وتفصيله بعد الإبهام والإجمال أوقع فى النفس وألذ ... هذا ، وقد عدل عن أن يقال : أشرب قلوبهم العجل أى حبه ، وعدل عنه بإسناد الإشراب إلى أنفسهم للمبالغة ، كأنهم أشربوا بجملتهم العجل نفسه [1].

وقد ذكر علماؤنا ملحظا لطيفا أيضا هو أن الآية الكريمة جاءت إبطالا لقولهم ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ... ﴾ قال ابن عاشور : فأسلوب الذم وقع تذييلا لأنها تبطل قولهم السالف بشواهد التاريخ ﴿ فلم تقتلون ﴾ ... وقوله : ﴿ ولقد جاءكم موسى ... ﴾ [2].

وكشف البقاعى عن المناسبة فقال : ﴿ ولما بين ـ سبحانه ـ عظيم كفرهم وعنادهم مع وقاحتهم بادعاء الإيمان ، والاختصاص بالجنان ، أمر نبيه ـ ﷺ ـ أن يقول لهم على وجه التهكم بهم مؤكدا لذمهم بالتعبير بما وضع لمجامع الذم، فقال : قل بئسما ... ﴾ أى بئس الشئ الذى .... وأوضح هذا التهكم بقوله ﴿ على سبيل الفرض والتشكيك ـ إن كنتم مؤمنين [3]﴾ .

وذلك أنه ﴿ أظهر إيمانهم المقطوع بعدمه فى مظهر الممكن المفروض ، ليتوصل من ذلك إلى تبكيتهم وإفحامهم .... ولهذا أضيف الإيمان إلى ضميرهم ، لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم ـ أى الذى دخله التحريف

---

(١) حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى ١/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ .
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦١١ .
(٣) نظم الدرر ١/ ٢٠٠ .

والاضطراب[1]﴾ .

وقد آثرت نقل نصوص أئمتنا برمتها ففيها غناء وثراء فى فقه البيان القرآنى وهو كاشف على أن أسلوب الذم جاء مطلبا للسياق ، والكلام فى (ما) هنا كالكلام فى أختها [2]، والمخصوص بالذم هنا محذوف ، وربما يوحى حذفه بفظاعة قبحه ، وقد قدره ابن عاشور[3] (عبادة العجل) ، وعمم غيره فى التقدير فقدره : قتل الأنبياء وكذا وكذا [4].

ولعل المقصد من أسلوب الذم هنا تقبيح أفعال اليهود والتهكم بهم وتسفيه رأيهم .

قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد عملوا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ (البقرة/ ١٠٢).

هذه قبيحة أخرى من أفظع قبائح اليهود ، وهذه الحلقة من الحديث عنهم من اختصاصات سورة البقرة ، وذلك يتناسب ومطلع السورة الكريمة الكاشفة عن أن أعلى صفات المؤمنين الإيمان بالغيب ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ... ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦١٢ .

(٢) انظر الكشاف ١/ ٢٩٧ ، مفاتيح الغيب حج ٣/ ١٨٨ ، وأنوارالتنزيل وزاده عليه ١/ ٣٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٦١٣ .

(٤) إرشاد العقل السليم ١/ ١٣١ ، روح المعانى ١/ ٣٢٦ .

(البقرة/ ٣) ورأس الإيمان بالغيب. . . ﴾ (البقرة/ ٣) ورأس الإيمان بالغيب أن يسند كله لله ، وفى والاعتقاد بالسحر والتنجيم عكس ذلك .

وقد جاء أسلوب الذم هنا مقترنا باللام : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ تناسبا مع قوله سبحانه ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ﴾ فالسياق يجرى على لا حب واحد حتى فى نسق التركيب ، وقد رأيت فى الأسلوب تتابع ثلاث لامات ﴿ ولقد ـ لمن ـ لبئس ﴾ وقد اختلفوا فى الآية اختلافا كثيرا .

أولا : ذكر ابن عاشور أن قوله : (ولبئس . . .) عطف على قوله : (ولقد علموا . . .) عطف إنشاء على خبر ، وعليه فهو لا يرى (ولقد علموا) جملة قسمية.

ثانياً : ذكر الكواش وأبو البقاء أن اللام فى (لمن) موطئة للقسم، ورده .

البيضاوى ، لأن الجملة التى تسد مسد مفعولى علمت لا يجوز أن تكون جملة قسمية .

ثالثا : عند المولى خسرو أن اللام فى (لمن) لام ابتداء ، وهو رأى البيضاوى ، وقد علقت هذه اللام (علم) عن العمل .

رابعا : ذكر البقاعى أن اللام فى (لبئس) لام جواب قسم محذوف والتقدير : والله لبئسما .

خامسا : يرى الآلوسى أن اللام ابتداء ، ويقول : والمشهور أنها جواب قسم ، والجملة معطوفة على القسمية الأولى [(١)].

---

(١) أنوار التنزيل ، وحاشية زاده عليه ١/ ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، إرشاد العقل السليم ١/ ١٤٠ ، روح المعانى ١/ ٣٤٦ ، نظم الدرر ١/ ٢٠٩ ، التحرير والتنوير ١/ ٦٤٧ .

وقد أبصرنا أن الرأى الأسلم من النقد هو عدها لام ابتداء ، وإن عطفنا عليها جملة الذم كما ذكر ابن عاشور يكون إشكال عطف الإنشاء على الخبر ، فالأسلم أن نقول : الواو استئنافية ، ويكون فى الاستئناف تأكيد لذم السحر والتنفير منه ، وهو مقصد يشع من روح السياق ، وإنما تكاثرت المؤكدات فى هذا السياق ، لما يمكن أن يظهر من بعض المنافع للسحر ، مما يجرى على الإيمان به ، والاعتقاد فى مرتكبيه ، ولما كان مظنة ذلك تكاثرت المؤكدات دفعاً لذلك ، وزيادة تنفير من السحر ، وزيادة تفظيع لقبائح اليهود .

وقد جاء فاعل (بئس) هنا (ما) وهى أوغل فى الإبهام تناغما مع مطلع الآية الكريمة ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ ، والمخصوص بالذم هنا محذوف وتقديره : السحر ، وقد سبق الحديث عن ﴿شروا﴾ فى الآية قبل السابقة ، وفى تكرره بإزائهم كشف أن اليهود لا هم لهم فى الدنيا إلا التكسب ، حتى لو كان على حساب بيعهم أنفسهم ، لقاء أى ثمن .

وفى حذف المخصوص إيحاء بأنهم باعوا أنفسهم دون ثمن ، لأن السحر أوهام وتخييل ووساوس شيطان ، وليس له حقيقة واقعة ، وربما وقع الحذف هنا تلاؤما مع طبيعة المسند إليه (المخصوص بالذم) وربما يوحى ذلك بتعينه ، كأنه لا أجمع للمذام إلا السحر ، وأمر ذلك أشهر من أن ينص عليه .

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾ (آل عمران/ ١٨٧) .

جاء أسلوب الذم هنا فى سياق الكشف عن فضائح اليهود ، فى تحريفهم كلام الله ، وإذا ما سمعوا الحديث عن الإنفاق معبرا عنه بالإقراض قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وادعوا على الله ـ سبحانه ـ عهدا لهم لم يكن ،

ومجئ أسلوب ذم اليهود فى هذا السياق فيه تصبير للمؤمنين على ما سينالهم من الأذى من اليهود ، ألا ترى أنه وقع فى سياق الفضائح التى ذكرتها ، ثم جاء بعد قوله ـ سبحانه ـ ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (آل عمران / ١٨٦) ثم جاء مطلع الآية الوارد فيها الذم بـ «إذ» أى ومما يعينكم على الصبر على أذاهم أن تتذكروا جرأتهم على الله ـ سبحانه ـ وتنزيله ، وتبديلهم وتحريفهم لقاء ثمن قليل ، هذا ما تبيح به علاقة تجاور الآى .

والملحوظ هنا أن جملة الصفه أو الصلة جاءت بصيغة الافتعال (يشترون) وهذا مما يختص به موضع الذم فى آل عمران ، أما فى البقرة فهو (شروا) ولا يوجد هذا التعبير فى جنب اليهود فى غير السورة الكريمة ، ويبدو أن صيغة الافتعال هنا تتناسب مع سياق اللجاجة الذى سبق أسلوب الذم ، ومن أول قوله تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . . .﴾ (آل عمران / ١٨١) وقوله : ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار . . .﴾ (آل عمران/ ١٨٣) .

ألا تبصر أنه افتعال كله ولجاج كله ، تأمل معى قول البقاعى فإن تحته ما قلته ﴿فبئس ما يشترون﴾ أى : لأنه مع فنائه أورثهم العار الدائم ، والنار الباقية﴾ وعبر عن هذا الأخذ بالشراء ؛ إعلاما بلجاجهم فيه ، وشبه بصيغة الافتعال على مبالغتهم فى اللجاج[1]﴾ **وهذا يعنى أن المقصد من ورود أسلوب الذم فى هذا السياق هو زيادة الكشف عن لجاج اليهود ، وهو مما يعين على الصبر على أذاهم ، وهما مقصدان متعانقان للأسلوب .**

---

(١) نظم الدرر ٢/ ١٩٥ .

هذا وفى وقوع (ما) فاعلا لبئس هنا تناسب مع السياق ، إذ تعريفه بالموصولية فيه تقبيح وتحقير لما اشتروا ، ووقوعه بالمضارع فيه استحضار للصورة الماضية ، وفيه أيضا كشف عن أنهم لا يزالون محدثين لهذا القبح ، وفى حذف المخصوص بالذم هنا مع تأخيره إيلاء كبير عناية للفاعل ، حتى ينصب الذم كله على المشترى كشفا عن خيبة سعيهم وبوار أفعالهم ، وقد ذكروا أن (ما) هنا يحتمل أن تكون تمييزا فى محل نصب ، وجملة يشترون صفته ، وقيل (ما) مصدرية [1]، ولا يمتنع أن تكون ما موصولة أيضا ، وعلى أى حال كل وجه جائز وراءه معنى ليس فى الآخر ، وهذا من ثراء التعبير فى الذكر الحكيم ، والذى أبصره أيضا أن جملة الذم وقعت تذييلا لتأكيد ما مضى من الحديث عن فضائحهم . ولك أن تبصر لطيفة فى النظر إلى قوله : ﴿يشترون﴾ بإزاء قوله من قبل ﴿واشتروا به . . .﴾ وقد ذكرت ذلك سلفا .

قال تعالى : ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل . وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾ (المائدة/ ٦٠ : ٦٢) .

سورة المائدة تلى سورة البقرة فى فضح اليهود والكشف عن قبائحهم ، والذكر الحكيم فى هذا السياق يصعد بيانه فى ذمهم أبصر ﴿أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾ ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ بهذا النمط من توكيد الاسناد وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى الكاشف عن أن الكفر ملازم لهم أبدا ، وكأن السياق شرح وتفصيل بل تعليل لجعلهم قردة وخنازير ،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ١٢٤ ، روح المعانى ٤/ ١٥٠ .

ولكونهم شرا مكانا وأضل عن سواء السبيل ، وترى تصعيد البيان القرآنى فى السعى إلى ذمهم ظاهرا كفلق الصبح فى إنصاف لبعضهم ، ووصف لهم بما فيهم ﴿وترى كثيرا منهم﴾ وهذا غاية فى الإنصاف ، ثم يكشف عن تهالكهم فى طلب المعاصى بقوله : ﴿يسارعون﴾ فأنت بالتعبير بالمضارع تبصر تدافع القوم وحركتهم النشطة ، وتسابقهم المتهالك إلى ماذا ؟ إلى الإثم والعدوان !! فما أقبحهم قوما ، وترى الذكر الحكيم فى هذا السياق يصطفى من التراكيب ما يكشف عن فظاعة أفعالهم ، وذلك فى التخصيص بعد التعميم ، ألا ترى أن السحت من الإثم ، غير أنه «خصه بالذكر مع اندراجه فى الإثم للمبالغة فى التقبيح [(١)]» و «زيادة فى التوبيخ[(٢)]» وأنت تبصر فى إضافة الأكل إلى السحت قوما ملتبسين بأشنع الأشياء ، متهالكين عليها فقد أصبح السحت لهم مطلبا أعلى ، وسبيلا أهدى !! وذكر السحت من اختصاصات السورة الكريمة ، فلم يذكر إلا فى جنب اليهود ، وفى هذه السورة .

ما ذكرته ليس من موضع الدراسة ببعيد ، وإنما ذكرت ما ذكرت كشفا عن أن أسلوب الذم يكون ذروة التقبيح وغاية التوبيخ ، وهو ذروة تصعيدا لبيان القرآنى وتبصر ما ذكرته تحت كلام الشيخ البقاعى ـ رحمه الله ـ ورحم كل مشايخنا ـ فى عبارة وجيزة وجامعة حيث يقول : ﴿وأكلهم السحت : أى الحرام الذى يستأصل البركة من أصله فيمحقها ، ومنه الرشوة ، وكان هذا دليلا على كفرهم لأنهم لو كانوا مؤمنين ما أصروا على شئ من ذلك ، فكيف بجميعه ، فكيف بالمسارعة فيه ، ولذلك استحقوا غاية الذم [(٣)]» وقد نور كلامه ـ رحمه الله ـ أن أسلوب الذم جاء استجابة لمطلب السياق ، وجاء ذروة

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ٥٥ .

(٢) زاده على البيضاوى ٢/ ١٢٢ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ٤٩٥ .

البيان عن قباحة اليهود ، **والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المقصد من كل ذلك، فوق التشنيع على اليهود وتقبيحهم ، هو التحذير من متابعتهم وتفظيع ارتكاب الإثم وأكل السحت ، كل ذلك مما يوحى به أسلوب الذم متعانقا مع السياق القرآنى .**

وقد جاء أسلوب الذم هنا مقترنا بلام جواب القسم مما يضاعف تأكيد التقبيح ، ويعلى نبرة التحذير .

و(ما) إما أن تكون فى موضع نصب على التمييز ، وإما أن تكون فى موضع رفع فاعل [1]، والإبهام الذى فى ما ، فيه تهويل وتفظيع لصنائعهم ، وفى الجمع بين الماضى والمضارع فى جملة الصلة أو الصفة ﴿كانوا يعملون﴾ «دلالة استمرارهم[2]» قديما وحديثا فى صنائعهم تلك ، وهو يتناسب مع السياق فى (يسارعون) و (ترى) قبلها .

والمخصوص بالذم هنا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وفى حذفه إلماع أنه متعين ومتعارف عليه ، واشتهاره أغنى عن ذكره ، وفى ذلك إلماع إلى شيوع ذلك فيهم .

قال تعالى : ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ (المائدة / ٦٣) .

تلت هذه الآية الكريمة الآية السابقة ؛ كشفا عن أنها أمة ضل علماؤها ، وناموا عن انتشار الفظائع ، وقد ذكر علماؤنا أن ترك الحسبة أوقع من مواقعة المعصية ، لذا خص علماءهم بالذم ، **ويبدو أن الغرض من سوق أسلوب**

---

(١) روح المعانى ٦/ ١٧٩ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/ ٥٥ ، روح المعانى ٦/ ١٧٩ .

الذم هنا النعي على العلماء توانيهم في النهى عن المنكرات ، وتحذير علماء المسلمين من التوانى فى النهى عن المنكرات ، ولعلم العلماء بعواقب الأمور جاء أسلوب الذم فى جنبهم أكثر مبالغة من سابقه ؛ لذا ذكر العلماء أن هذا الأسلوب أبلغ من ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ ، وحجتهم فى ذلك أن الصنع يدل على الحذق والتدرب والمهارة[1] وأنه من أجل هذه الدلالة ذم به خواصهم ، والذى أفهمه من قولهم (أبلغ) أى أكثر مبالغة من سابقه ، تلاؤما مع السياق ، بحيث لو غوير بينهما لما تلاءم ذلك مع السياق ، غير أن ابن عاشور ذكر أنه خولف فى التعبير بين (يصنعون) و (يعملون) تفننا فى الأسلوب[2] ولا أرضاه قولا ، والسياق الذى ذكرته شاهد على ذلك .

والكلام فى (ما) كالكلام فى أختها ، والكلام فى الجمع بين الماضى والمضارع فى جملة الصلة أو الصفة كالكلام فى أختها ، وفى هذا التقارب فى التركيبين دلالة على أنها أمة تماثل علماؤها وجهلاؤها فى المنكرات ، وكشفا أن الساكت عن المنكر كفاعله ، وأن العلماء قد خصوا بمزيد ذم ، لحملهم العلم الكاشف عن عواقب الأمور ، والكلام فى المخصوص هنا كالكلام فى سابقه .

قال تعالى : ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ (المائدة / ٦٥،٦٦) .

سبق فى التمهيد بيان أن (ساء) تجرى مجرى بئس ، وقد أجراها كثيرون

---

(١) الكشاف ١/ ٦٢٧ ، أنوار التنزيل وزاده عليه ٢/ ١٢٢ ، إرشاد العقل السليم ٣/ ٥٥ روح المعانى للآلوسى ٦/ ١٧٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦/ ٢٤٨ .

هنا مجرى بئس ، ورجح بعضهم أن تكون للتعجب المراد به فى مثل هذا السياق التعجيب ، وقليل منهم من ذهب إلى أنها (ساء) المتصرفة [١].

والراجح أن تكون (ساء) هنا محمولة على (بئس) لأن السياق كله فى ذم اليهود ، ودلالة (ساء) على التعجب ليست ببعيدة ، إذ قد اشترطوا فى إجرائها مجرى بئس أن تتضمن التعجب ، وقباحتهم فى ترك القيام بحق الكتاب عجيبة ، إذ فى القيام به كل الخير ، وفى ترك القيام بحقه كل الشر ، فاعجب من قباحة قوم يسعون إلى إضرار أنفسهم .

وجملة الذم واقعة هنا خبر مبتدأ (وكثير منهم) وفى ذلك إنصاف لبعضهم ممن أقام التوارة والإنجيل ، ومجئ (ساء) هنا هو الألصق بالسياق إذ الذم بها ليس على التناهى كما فى (بئس) وذلك لأن الحديث لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) على العكس مما مضى ، فلقد كان خاصا باليهود ، ثم إن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا تحسير أهل الكتاب وتنديمهم ، وإلهاب المؤمنين على القيام بحق الكتاب والمناسب لمثل هذا تخفيف نبرة الذم فوق أن فى اصطفاء (ساء) تناسبا أيضا مع جريان الأسلوب ألا تبصر أنه كرر «لو» «ولو أن أهل الكتاب» ﴿ولو أنهم آمنوا﴾ وفيه ما فيه من التمنى ، ومن التحسير ، عامل الجواب ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ وهذا خير الآخرة ، وخير الدنيا كذلك لمن يفوت «لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ ما من ريب أنك تبصر أن التناهى فى الذم .

لا يتناسب مع جريان هذا الأسلوب ، وإنما يناسبه ساء التى تفيد الذم ، وتتضمن التعجب .

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٣٥٢ أنوار التنزيل ٢/ ١٢٤ ، إرشاد العقل السليم ٣/ ٥٨ ، روح المعانى ٦/ ١٨٦ نظم الدرر ٢/ ٥٠٢ .

و (ما) هنا يمكن أن تكون موصولة فاعل ، أو تمييزا[1] والفاعل مستتر مفسر بما بعده وجملة (يعملون) صفة ، وفى التعبير بالمضارع هنا فتح لباب الفرج إذا ما داموا مستمرين فى العمل السئ يمكن أن يقلعوا ، فيكون فى ذلك ترغيب لهم للدخول فى حضرة الله ، ولو قال ساء ما عملوا لتغيير الأمر ، والمخصوص بالذم محذوف إسقاطا له عن درجة الاعتبار ، إذ لا يعد عملا ذلك الذى يغضب الله .

قال تعالى : ﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾ (المائدة / ٧٨،٧٩) .

سبقت آية من قبل ذلك فى تقبيح توانى العلماء عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غير أنها كانت مختصة بالربانيين ، والأحبار منهم ، أما هذه فعامة فيهم ، والآية الكريمة وقعت تعليلا للعنهم ، وقد وقع أسلوب الذم مستأنفا تأكيدا لتقبيح عدم التناهى عن المنكر ، وإلهابا للمؤمنين على التناهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، هذا هو المقصد من سوق أسلوب الذم امتداداً لهذا السياق فيما يظهر .

وقد وقع أسلوب الذم جوابا للقسم ؛ تأكيدا للتعجيب من قبيح أفعالهم كما ذكر العلماء [2]، والقول فى (ما) كالقول فى أخواتها ، والجمع بين الماضى والمضارع يكشف عن استمرارهم قديما وحديثا فى عدم التناهى ، وذلك كله بما يتلاءم وتعليل اللعن ، وقد « أطلق على ترك التناهى لفظ الفعل فى قوله (لبئس ما كانوا يفعلون) مع أنه ترك ، لأن السكوت على المنكر ، لا

---

(١) روح المعانى ١٨٦/٦ ، التحرير والتنوير ٢٥٥/٦ .

(٢) أنوار التنزيل ١٢٨/٢ ، إرشاد العقل السليم ٦٨/٣ ، روح المعانى ٢١٣/٦ .

يخلو من إظهار الرضا به ، والمشاركة فيه [1]» .

والمخصوص بالذم هنا محذوف ، وفى حذفه بعد تأخيره زيادة فى تفظيعه ـ وكيف لا يفظع وقد استوجب اللعن ـ وإنما جاء التفظيع من التأكيد على ذمه بتكرر الإسناد إليه ، بما الموصولة مرة ، ويكون المخصوص مبتدأ مؤخرا مرة أخرى ، وجاء التفظيع أيضا من الحذف الذى يلمع إلى التعيين أى لا سبب فى اللعن إلا ترك التناهى عن المنكر ، وأمر ذلك أشهر من أن ينص عليه .

قال تعالى : ﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون﴾ (المائدة/ ٨٠)

هذه نقيصة أخرى ، وفظيعة أخرى من فظائع اليهود ، وهى موالاتهم الكافرين ، وليس هذا منهم بغريب إذ هم يتسارعون إلى ما يغضب الله .

وقد جاء أسلوب الذم هنا جوابا للقسم المحذوف ، واقترن بلام الجواب، زيادة تأكيد على تقبيح موالاتهم الكفار ، ويظهر والله أعلم ـ **أن المقصد من أسلوب الذم ، هو تقبيح اليهود على موالاتهم الكفار ، وتنفير المؤمنين من موالاة الكفار .**

وتبصر أن الأسلوب كشف عن تعمدهم ذلك ومقصدهم له ﴿ما قدمت لهم أنفسهم﴾ تأمل كيف كشف الأسلوب عن خبث نفوسهم التى تقدم لهم ما يغضب الله ، وتعينهم على ذلك ، والتقديم أيضا (لهم) يعين على ذلك ويساعد عليه .

والكلام فى (ما) سبق تقريره مرات ، وقوله تعالى : ﴿ أن سخط الله

(١) التحرير والتنوير ٦/ ٢٩٤ .

عليهم ﴾ هو المخصوص بالذم على الراجح [1]، ولا يصح أن يعرب بدلا من (ما) لأن البدل يكون على نية أن يحل محل المبدل منه ، ولا يجوز أن يكون فاعلا لبئس [2].

وقد دل ذكر هذا المخصوص أن الله غضب عليهم غضبا خاصا لموالاتهم الذين كفروا [3]، وفى تأخيره زيادة تأكيد على ذمهم وتقبيحهم .

وقد ذكر العلماء أنه لابد من تقدير مضاف للمخصوص ، أى موجب السخط لأن نفس السخط المضاف إلى البارى - عز وجل - لا يقال له إنه المخصوص بالذم ، وقد جوز أن يكون قوله تعالى : ﴿أن سخط الله عليهم﴾ علة للذم على تقدير لام علة ، ﴿ لأن سخط الله عليهم [4]﴾ .

والأسلوب كله متظاهر على إظهار تبجحهم فى مبارزة الله - جلت قدرته - بما يغضبه ، وفى كل ذلك بالطبع إلهاب للمؤمنين على ترك موالاة الكفار ، مهما ظهر منهم من الحب ، ومهما بدا منهم من الفوائد .

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ (الأعراف/ ١٧٥ ، ١٧٦، ١٧٧).

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٦٧ ، أنوار التنزيل ٢/ ١٢٨ ، إرشاد العقل السليم ٣/ ٦٨ ، روح المعانى ٦/ ٢١٣ ، التحرير والتنوير ٦/ ٢٩٥ .

(٢) دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/ ٣٦١ .

(٣) التحرير والتنوير ٦/ ٢٩٥ .

(٤) زاده على البيضاوى ٢/ ١٢٨ .

هذا أسوأ مثل ضرب فى الذكر الحكيم لمن آمن ثم انسلخ من الإيمان ، وقد ذكروا أنه مثل لبلعم بن باعوراء أحد علماء اليهود ، من أجل ذلك أوردته فى سياق ذم اليهود ، وقد ذكر العلماء أن (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) وأن (مثلا) تمييز للضمير المستكن فى (ساء) وهو فاعل ، وهو مفسر بهذا التمييز «ولابد أن يكون المخصوص بالذم من جنس التمييز ، فاحتاج إلى تقدير حذف إما فى التمييز ، أى : ساء أصحاب مثل القوم ، وإما فى المخصوص أى : ساء مثلا مثل القوم[1]» .

وقد ناسب سوء المثل سوء المضروب لهم هذا المثل ، و(ساء) هنا تتناسب والسياق ، لأنه تقبيح متعجب منه ، وساء تفيد الذم ، وتتضمن التعجب ولا أقبح ولا أعجب من رجل عرف الحق وتركه ، وعرف الراحة ، وأباها وطلب التعب .

هذا وقد كشف البقاعى عن مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : «ولما ظهر بهذا أن مثل الكلب الذى اكتسب من ممثوله من السوء والقذارة ما لا يعلمه حق علمه إلا الله تعالى ـ مثل المكذبين بالآيات ، أنتج ذلك قوله ﴿ ساء مثلا . . . ﴾ تأكيدا لذمهم وزجرهم [2]» ويمكن أن آخذ من ذلك **أن المقصد من سوق أسلوب الذم فى هذا الموضع فوق أنه التأكيد على تقبيح المكذبين بآيات الله فيه زجر للمؤمنين أيضا وتحذير لهم من الارتداد .**

وشئ آخر يمكن أن يقال ـ وهو متعانق معه لا متعاند ـ **المقصد بيان**

---

(1) البحر المحيط ٤/ ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، أنوار التنزيل وزاده عليه ٢/ ٢٨٥ ، إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٩٢ ، روح المعانى ٩/ ١١٦ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ٣٦٨/١٠ ، ٣٦٩ .

(2) نظم الدرر ٣/ ١٥٣ .

كمال قبح حال المكذبين ، وذلك من كلام الأئمة فى جملة الذم وأنها «استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين ، بعد بيان كونه كحال الكلب[1]» أو هو تشنيع على تشنيع ، وهو من قول ابن عاشور وجملة الذم «مستأنفة لأنها جعلت إنشاء ذم لهم بأن كانوا فى حالة شنيعة وظلموا أنفسهم[2]» .

والظاهر أن المخصوص بالذم هنا هو قوله تعالى : ﴿ القوم الذين كذبوا. . .﴾ وفى تأخير المسند إليه هنا مبادرة بالذم تعجيلا بمساءتهم ، وفى ذكره بعد تأخيره تقرير لذمهم وتشنيع عليهم .

قال تعالى : ﴿مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (الجمعة / ٥) .

الآية الكريمة قريبة من الآية السالفة لذا ذكرتها فى إثرها ، وقد جاء أسلوب الذم هنا عقب تمثيل نادر فى الذكر الحكيم ، وهو تمثيلهم بالحمار الذى ينال المشاق من أحمال لا ينتفع بها ، ولم يخل منه كتاب بلاغى ، من بعد ما وسع الإمام عبد القاهر القول فيه ، والملحوظ أن هذين المثلين الشنيعين لم يقعا فى الذكر الحكيم إلا مرة واحدة ، وفى جنب علماء اليهود ،وفى سوقهما كذلك فوق التشنيع على اليهود تحذير بالغ لعلماء المسلمين من التهاون فى القيام بحق الكتاب ، ومن ترك التناصح والتناهى عن المنكر .

والملحوظ أيضا أن أسلوب الذم جاء كالتعقيب على المثل ، زيادة فى

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/ ٢٩٢ ، روح المعانى ٩/ ١١٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ١٧٩ .

التشنيع على علماء اليهود ، فكأن أسلوب الذم هو اللمسة النهائية التى يبلغ بها البيان القرآنى الذروة فى التشنيع والتقبيح . وقد جاء مقطوعا عما قبله لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء ، لفظا ومعنى ، وقد اختلفوا فى المخصوص هنا على قولين : إما أن يكون مذكوراً ، وهو قوله تعالى : ﴿الذين كذبوا بآيات الله . . .﴾ وإما أن يكون محذوفا والتقدير اليهود [1]، وعلى الأخير يكون الذين وصلته فى محل جر صفة للقوم ، والذى أبصره أنه إذا أستطيع إبصار المخصوص مذكوراً كان أولى ، وهو هنا واضح وظاهر .

وقد أغرب ابن عاشور حين ذهب إلى أن التركيب هنا لا يحتاج إلى مخصوص محتجا بأن الفاعل (مثل القوم) أغنى عنه ، ولحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين [2]، وما ذكره الشيخ الجليل كائن فى كل أسلوب مدح أو ذم ، غير أن كلامه لاوجه له ، وأنت تبصر فى الأسلوب مع ذكر المخصوص ، أن الذم توجه مرة إلى المثل نفسه ﴿بئس مثل القوم﴾ وإضافة الفاعل إلى القوم جرت الذم إليهم ، ثم جاء المخصوص بعد ذلك فأسند الذم إليه ﴿الذين كذبوا . . .﴾ على تقديره مبتدأ مؤخرا ، وفى وقوعه موصولا إيماء إلى وجه الخبر ، وكشف عن سبب التناهى فى ذمهم ، وكل هذا يفوت أو كثير منه بالاستغناء عن المخصوص ، فوق أن فى تأخير المسند إليه تعجيلا بمساءتهم ، والبناء كذلك يدل على أنه إذا ما كان المثل على هذه الغاية من الذم، فكيف بالممثل لهم .

وقد ذكر البقاعى المناسبة فقال : ﴿ولما كان المثل الجامع لهما ، وهو وجه

---

(١) أنوار التنزيل وزاده عليه ٤/ ٤٩٤ ، إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤٧ ، البحر المحيط ٨/ ٢٦٧ ، روح المعانى ٢٨/ ٩٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢١٤ .

الشبه شخصا مثقلا ، متعبا جدا لشئ لا نفع له به أصلا ، فهو ضرر عليه صرف ، لا يدرك ما هو حامله ، غير أنه متعب ولا يدرى أصخر هو أم كتب، أنتج قوله : معبرا بالأداة التى هى لمجامع الذم ؛ **ترهيبا للآدميين من أن يتهاونوا بشئ من أحكام القرآن** ، فيكونوا أسوأ مثلا من أهل الكتاب ، فيكونوا دون الحمار ، لأن رسولهم - ﷺ - أعظم ، وكتابهم أعلى وأفخم - بئس مثل القوم . . .﴾ (١).

وقد أبصرت كيف ذكر الشيخ - رحمه الله - المقصد من أسلوب الذم فى تضاعيف كلامه ، ومثل هذه الدرر ، هى التى تهدى فى ميدان البحث البلاغى.

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٥٩٦ .

أسلوب الذم في سياق الحديث عن المعبودين من غير الله

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ (الحج / ١١ ، ١٢، ١٣) .

الآيات الكريمات مسوقات فى تقبيح المعبودين من غير الله ، كاشفة عن عدم نفعهم عابديهم ، مع أن المرتدين إلى عبادة الأصنام ارتدوا إليها طلبا للنفع، لما أصابهم بعض الضر وهم يعبدون الله . فكيف يترك الجاهل بعض الضر إلى كل الضر ، وكيف يترك بعض الخسران فى الدنيا - فيما يعتقد هو - إلى كل الخسران فى الدنيا والآخرة .

والملحوظ أن الذكر الحكيم يصعد بيانه ؛ كشفا عن سوء تفكير المرتدين ، وذلك بتقبيح ما ارتدوا إليه ، فقد نفى فى الآية الواقعة قبل أسلوب الذم أن يكون لمعبوديهم من دونه نفع أو ضر ، وتلحظ أنه نفى الضر قبل النفع ؛ إلماعا إلى أنه معبود مأمون الجانب ، تام العجز إن أوذى لا يرد الإيذاء ، فهو لا ينفع نفسه ، فما أقبحه معبوداً ، وإذا ما كان المعبود عاجزاً قبيحاً كان العابد أعجز وأقبح ، ثم صعد الذكر الحكيم بيانه ، فأثبت له الضرر وقد نفاه من قبل عنه، ولا تعارض ، لأن الضرر لا يتأتى من المعبود من غير الله ، وإنما يقع على العابد بسببه فى الآخرة ، وأفعل التفضيل هنا ليست على بابها ، وإنما دلت على أنه لا نفع له أصلا ، وقد جاءت أفعل التفضيل هنا على لغة العرب ،

فهم يقولون فى الشئ الذى لا يكون : هذا بعيد كما ذكره ابن الجوزى [(١)].

وفى الأسلوب توجيه آخر هو أن المقصود رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم فى الشدائد مستصوبين آراءهم ، لأن وصف المولى والعشير لا يليق إلا بالرؤساء ، وقد يراد الأصنام فى الموضعين ، إلا أنه أثبت الضر لها مجازاً لأنها سبب الضلال الذى هو سبب عذاب النار ، نظيره ﴿رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ ، وأثبت لها النفع بناء على معتقدهم أنها شفعاؤهم عند الله والمراد : يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام ، ولا يرى أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير ذلك ، أو أراد يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ثم قال : لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا [(٢)]﴾

وكله كلام سديد ، وفى التوجيه الذى ذكره النيسابورى كشف عن أصناف المعبودين من غير الله ، وفى التاريخ ما يدل على ذلك ويرجحه كفرعون ـ لعنه الله ـ مثلا ، وتكون أفعل التفضيل على بابها ، وقد وقع أسلوب الذم جوابا لقسم مقدر ، مما يؤكد الذم ، ويزيد التشنيع عليهم ، وقد تناسب بذلك مع السياق ﴿لمن ضره أقرب من نفه﴾ فقد ناسب التوكيد التوكيد، وقد ذكروا أن (يدعو) الثانية توكيد للأولى وما بينهما اعتراض [(٣)].

وقد جاء فاعل بئس كذلك متناسبا مع السياق الذى يتحدث عن الضر والنفع ، وإصابة الخير ﴿فهى شر الموالى وشر العشراء ، لأن شأن المولى جلب

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٥/ ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى بهامش الطبرى ١٧/ ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) زاده على البيضاوى ٣/ ٣٧٧ .

النفع لمولاه ، وشأن العشير جلب الخير لعشيره ، فإذا تخلف ذلك منهما نادرا كان مذمة وغضاضة ، فأما أن يكون ذلك منه مطرداً فذلك شر الموالى [(1)]﴾ ومعنى هذا الكلام أن أسلوب الذم جاء ذروة تصعيد البيان القرآنى الكشف عن قبح المعبودين من دون الله ، مما يستتبع قبح العابدين ، **ويبدو أن المقصد من أسلوب الذم تسفيه المشركين بتقبيح المعبودين من غير الله .**

ويبدو أن فى تسمية الأصنام والمعبودين من غير الله بالمولى والعشير تهكما بهم إذ كيف يعتقدونه كذلك وضره أقرب من نفعه .

وقد ذكر البقاعى مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : ﴿ولما كانت الولاية الكاملة لا تنبغى إلا لمن يكون توقع النفع منه والضر على حد سواء ، لقدرته على كل منهما باختياره ، وكان العشير لا يصلح إلا إن كان مأمون العاقبة ، وكان هذا المدعو إن نظر إليه فى جانب الضر وجد غير قادر عليه ، أو فى جانب النفع فكذلك ، وإن فرض توقع نفعه أو ضره ، كان خوف ضره أقرب من رجاء نفعه استحق غاية الذم ، فلذلك استأنف ـ تعالى ـ وصفه ، بقوله معبرا فى ذمه بالأداة الموضوعة لمجامع الذم ﴿ لبئس المولى ﴾ لكونه ليس مرجو النفع ، كما هو مخشى الضر ، ولبئس العشير ؛ لكونه ليس مأمون الضر ، فهو غير صالح لولاية ولا لعشرة بوجه [(2)]﴾ .

وقد بنى الأسلوب على المقابلة إذ انتقل الحديث من بعد ذلك إلى بيان نصرة الله أولياءه ، وقوبل فى نهاية السورة بأسلوب مدح لله ـ عز وعلا ـ

(1) التحرير والتنوير ٢١٦/١٧ .
(2) نظم الدرر ١٣٨/٥ .

متقابل مع أسلوب الذم للمعبودين من دونه ، ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ (الحج/٧٨) ، ومعظم حديث السورة الكريمة دائر على بيان نصر الله أولياءه ، وخيبة الذين يعبدون من دون الله آلهة ؛ تلاؤما مع مطلعها الذى يتحدث عن الساعة التى بعد الحساب .

والمخصوص بالذم هنا محذوف فى الموضعين إسقاطاله عن درجة الاعتبار، وقدره البيضاوى : لبئس المولى الناصر ولبئس العشير الصاحب[1].

ففى تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وفى تأخيره زيادة فى تحقيره ، وفى حذفه تلاؤم مع الواقع لكونه ليس ناصرا ، وليس صاحبا .

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (الحج/٧٣) .

جاءت الآية الكريمة عقب آية دلت على أن أشد ما يصيب الكافرين من الأذى هو أن تقرع أسماعهم آيات الله ، إذهى تتحداهم ، وتظهر أبدا ضعفهم، وتكشف سوء تفكيرهم ، ألا تراهم من غيظهم عند سماع آيات الله تتلى ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ ، ثم جاء السياق بنمط آخر من التحدى ، وهو آية من كتاب الله الصامت (الكون) بعد عرض آية من كتاب الله الناطق (القرآن) .

وقد اصطفى الذكر الحكيم ما يعده الناس أحقر شئ ويعافونه ، وقد تدرج فى التحدى ، فتحداهم أولا بأن يخلق آلهتهم ذبابا ، وكأنى بالذكر

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٣٧٧ .

الحكيم تتواصل أطرافه ، فأولئك الكافرون كانوا يسخرون من ضرب البعوضة مثلا ، فرد ربنا : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها. . . ﴾ (البقرة/ ٢٦) فتحداهم أن يخلق آلهتهم ما احتقروه ، فما أحقرهم آلهة إن لم يستطيعوا خلق ما تحتقرونه ، وتلحظ أنه جاء بلن الزمخشرية التى تفيد تأبيد النفى ، أى لن يكون ذلك من آلهتكم ، ألبتة ، وأنت تباصر أن الآية الكريمة ، تنادى على أسلوب الذم السابق فى أول السورة الكاشف عن العجز التام للآلهة .

ثم تأمل كيف يصعد القرآن بيانه فى الكشف عن ضعفهم ﴿ولو اجتمعوا له﴾ فهم عجزة اجتمعوا أو تفرقوا ، ثم خطا الذكر الحكيم خطوة أبعد فى الكشف عن عجزهم ، بأن ما احتقروه فوق أن آلهتهم لا تستطيع خلقه ، لا تستطيع أبدا استنقاذ ما يأخذه وما يختطفه من أطعمتهم ، أترى عجزا فوق هذا العجز ، ويستأنس فى كشف هذا المعنى ما ذكر من أن أحد العلماء الكافرين ، احتبس ذبابا فى مختبر محكم الغلق ، ثم وضع حبات من السكر ، وانقض الذباب عليها ، وعلى الفور أمسك ذلك العالم بالذباب ، وقام بتشريحة فلم ير للسكر أثرا ، فقد تحلل فى دم الذباب فور التقاطه .

أترى عجزا بعد هذا الآلهة لا تستطيع حماية عابديها من الذباب فوق أنها لا تستطيع خلق الذباب ، ثم جاء أسلوب الذم فى الذروة العليا التى لخصت الضعف المذكور (ضعف الطالب والمطلوب) ، ولم يكن لغير ضعف أن يرد فى مثل هذا السياق ، إذهى الألصق بمقام الكشف عن العجز ، والبيان عن الضعف .

وقد ذكروا أن جملة الذم «تذييل وفذلكة للغرض من التمثيل ، أى ضعف الداعى والمدعو . . . أى ضعفتم أنتم فى دعوتهم آلهة ، وضعفت الأصنام عن صفات الإله ، وهذه الجملة كلام أرسل مثلا ، وذلك من بلاغة

الكلام (١)﴾ ، ويمكن أن يكون المعنى : ضعف الطالب أى الإله والمطلوب أى الذباب أو ما سلبه الذباب .

وما من ريب بعد ما عرضت لك السياق أنك ترى أن (ضعف) هنا جارية مجرى (بئس) وهى وإن لم تكن من الأفعال المحولة - إلا أن الهيئة متحدة ، ولا يمنع ذلك من أن تكون جارية مجرى بئس كما سبق بيانه فى التمهيد .

وقد ذكر جماعة أنها هنا للتعجب (٢)، نعم هى تفيد التعجب ، بل شرط فى الأفعال المحولة الجارية مجرى بئس أن تتضمن التعجب ، والسياق للكشف عن العجز والتقبيح فهو عجز متعجب منه ، وقبح متعجب منه ، واعتباره خبرا هنا بعيد .

وعلاوة على ما مضى من بيان المعنى لقوله تعالى : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ ذكروا معانى أخر منها : أن المراد الصنم ومعبوده ، أو الطالب العابد ، والمطلوب هو الثواب والنفع والمطلوب منه هو الصنم ، إلا أنه أطلق المطلوب على الصنم على طريق الحذف والإيصال ، أو الطالب هو الذباب والمطلوب هو الطيب المسلوب ، والمطلوب منه هو الصنم ، وأطلق عليه على طريق الحذف والإيصال أيضا (٣)، وكلها معان يحتملها الأسلوب فى هذا السياق .

ويبدو أن المقصد من سوق الذم هنا تسفيه المشركين بالكشف عن عجز آلهتهم ، والمخصوص بالذم هنا محذوف يمكن أن يقدر عدة تقديرات بحسب تعدد المعانى السابق ذكرها ، الصنم والمعبود أو الذباب والطيب . . .الخ وقد حذف هنا لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، وفى ذلك إمعان فى الكشف عن عجز آلهتهم ، مما يستتبع زيادة تسفيه المشركين .

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٣٤٢ .

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٩٠ ، روح المعانى ١٧/ ٢٠٢ .

(٣) أنوار التنزيل وزاده عليه ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

أسلوب الذم فى سياق الحديث عن المشركين والكافرين

قال تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ (الأنعام/ ٣١) .

سورة الأنعام معظمها حديث عن المشركين ، لذا قالوا : من سره أن يعرف جهل العرب فليقرأ سورة الأنعام ، وقد جاء أسلوب الذم هنا فى سياق تنديمهم ، وتحسيرهم ، تأمل ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . . .﴾ (الأنعام /٢٧) ثم يكذبهم القرآن فى هذا التمنى ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (الأنعام /٢٨) ، ثم عرض السياق مرة أخرى ما يكشف عن تندمهم وتحسرهم ، ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ (الأنعام/ ٣٠) .

فالسياق جار كله على أن تحسرهم وتندمهم يوم الحساب سيكون ظاهرا ظهوراً بينا ، ومع ذلك لو انفكوا من الحساب لعادوا لما نهوا عنه ، لسخافة عقولهم ، وضلال آرائهم ، وقد جاء أسلوب الذم فى نهاية آية تصور حسرتهم وندمهم ، وقد افتتحها بقد التحقيقية ، فقد أصبحت خسارتهم أمرا مقضيا ، ثم إذا باغتهم الساعة لبحوا بالحسرة ، وأقروا بالتفريط حين لا ينفع تحسر ، ولا إقرار وقد قيد حسرتهم بهذا القيد وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) ما أسوأها صورة أتت بهذا القيد تبصر قوما فاقت أحمالهم كل قواهم ، تأمل صورة بديعة إذ ترى بها الأوزار حملا ثقيلا على الظهور تراها الأعين ، تقيد حركة هؤلاء المكذبين ، وهذا تلاؤم عجيب فى البلاغة القرآنية بين ما يكون قيدا فى الواقع وقيدا فى الجملة .

ثم جاء أسلوب الذم بـ (ألا) الاستفتاحية التى تنبه الأفئدة إلى إيلاء مدخولها كبير عناية ، وكل ذلك مما يوحى بتأكيد الذم ، والظاهر أن **جملة الذم سيقت لقصد زيادة التحسير والتنديم** ، وفى التعبير بلا أوزار زيادة تشنيع عليهم ، وفى هذا القيد (على ظهورهم) كشف عن شدة ثقله ، إذ لا يلجأ إلى حمل الشئ على الظهر إلا إذا اشتد ثقله ، أترى غفلة أبعد من غفلة قوم يظلون حياتهم فى إعداد أثقل الأحمال وأسوئها لحملها على ظهورهم فى أشد المواقف وأحلك الظروف ؟!

وقد جئ بـ (ساء) هنا لأنها ألصق بالسياق الدال على التحسير والتندم حين انتفاء النفع ، وذلك لأنها تمتاز على بئس بتضمنها معنى التعجب بعد دلالتها على الذم ، وإجراء (ساء) مجرى بئس هنا هو الراجح عند كثير من العلماء[(١)]، وإن كان كثيرون منهم قد أجازوا فيها الأوجه الثلاثة ، أن تكون متصرفة ، وأن تكون للتعجب ، وأن تكون جارية مجرى بئس [(٢)].

غير أن الملائم لهذا السياق أن تكون (ساء) جارية مجرى بئس ، وكونها للذم يتضمن التعجب أيضا ، أما عدها متصرفة فبعيد ، وقد رجح البقاعى الأول ، ولم يذكر سواه حيث قال : ﴿ولما كان ذلك الحمل أمرا لا يبلغ الوصف الذى يحتمله عقولنا كل حقيقة ما هو عليه من البشاعة والثقل ، أشار إلى ذلك بقوله ، جامعا للمذام (ألا ساء ما يزرون [(٣)]) .

---

(١) أنوار التنزيل وزاده عليه ٢/ ١٦٢ ، إرشاد العقل السليم ٣/ ١٢٣ ، التحرير والتنوير ٧/ ١٩٢ .

(٢) الكشاف ٢/ ١٧ ، أنوار التنزيل ٢/ ١٦٢ ، البحر المحيط ٤/ ١٠٧ ، ١٠٨ ، روح المعانى ٧/ ١٣٣ التحرير والتنوير ٧/ ١٩٢ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/ ٣٧١ .

(٣) نظم الدرر ٢/ ٦٢٦ .

وقد قدم المسند (ساء ما يزرون) على المسند إليه (المخصوص بالذم) تعجيلا بالمساءة وفى تأخير المسند إليه تأكيد لذمه وتقبيحه ، وفى حذفه زيادة فى تفظيعه ، وتقدير المخصوص (حملهم) .

فالنظم متظاهر على تأكيد ذم حملهم ، وذلك مما يضاعف من تحسيرهم وتنديمهم ، بل إن موقع الجملة نفسه يفيد التأكيد إذ هو تقرير لما مضى ، لذا قالوا : وقعت جملة الذم هنا تذييلا مقررا لما قبله وتكملة له ، و(ألا) حرف استفتاح يفيد التنبيه للعناية بالخبر[1] ﴾ وكونه مقررا لما قبله ، يؤيد ما حاولت استنباطه من المقصد من أسلوب الذم إذ ما قبله قطب المدار فيه على التندم والتحسير ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة البيان عن هذا المقصد .

قال تعالى : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ (الأنعام/١٣٦) .

سياق الآية يطلب أسلوب الذم ، وبـ (ساء) خاصة ، تأمل تقديم هذا القيد (مما ذرأ من الحرث والأنعام) وما فيه من الدلالة على قباحة تفكيرهم ، قوم يقسمون فى غير ملكهم ، ويحكمون فى غير ما ليس لهم فيه شئ ، فهى قباحة تدعو للعجب ، من أجل ذلك جاءت ، ولم تجى (بئس) لأن ساء تتضمن التعجب بعد دلالتها على الذم ، ثم تأمل كيف يصعد القرآن بيانه كشفا عن قبح تفكيرهم ، وعجيب جهلهم ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ وكيف صار ما للخالق كلأ لشركائهم من دون عكس ، وهو من أقبح الجهل ، وهى قباحة فى حق التصرف المزعوم فى غير الممتلكات ، ثم جاء أسلوب الذم بـ (ساء) ، تقريرا لذلك ومن أجل

(١) إرشاد العقل السليم ٣/١٢٣ ، التحرير والتنوير ٧/١٩٢ .

هذا النسق ، قال البقاعى كاشفا عن أن أسلوب الذم كان ذروة البيان القرآنى فى الكشف عن سفه المشركين حيث يقول : ﴿ ولما بلغ هذا غاية السفه قال : ساء ما يحكمون ﴾ أى حكمهم هذا أسوأ حكم ﴾ (١).

ولما كان سياق الآية وجريان الأسلوب يوحيان بالعجب والتقبيح جاءت ساء تناغما مع جريان الأسلوب ، وحكمها حكم بئس فى الإعراب والفاعل ، والقول فى «ما» هنا كالقول فى «ما» المصاحبة لبئس ، فيمكن أن تكون ما تمييزا مفسرا للفاعل المضمر فى ساء ، وتفسير الفاعل بمتأخر هو من خصائص هذا الباب ، وجملة يحكمون صفة ، ويمكن أن تكون مصدرية ، ويمكن أن تكون موصولة ، وفى مجيئها وخصوصيتها فى الإبهام تلاؤم مع السياق ، إذ توحى بأن ما مضى ينبغى أن يغيب عن الوجود لشديد سفاهته وعظيم قباحته ، وبالرغم من أن البعض قد ذكر أن (ساء) هنا ليست جارية مجرى بئس ، إلا أن الراجح عند كثير من العلماء إجراؤها مجرى بئس (٢).

كما أنك تبصر فى تسمية هذه السفاهة حكما تهكما بهم ﴿ لأنهم نصبوا أنفسهم لتعيين الحقوق ، ففصلوا بحكمهم حق الله من حق الأصنام (٣)﴾ أضف إلى ذلك ما فى التعبير بالمضارع من الدلالة على تكرار حدوث ذلك منهم ، وهو غاية السفة .

المخصوص بالذم هنا مؤخر محذوف وفى تأخيره تعجيل بمساءتهم بتقديم المسند وتأكيد على سفههم بالتأخير ، وتفظيع لحكمهم بالحذف ، ويظهر أن

---

(١) نظم الدرر ٢/٧٢١ .

(٢) البحر المحيط ٤/٢٢٨ ، حاشية زاده على البيضاوى ٢/٢١١ ، روح المعانى ٨/٣٢ ، التحرير والتنوير ٨/٩٧ ، ٩٨ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٦٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٨/٩٨ .

المقصد من سوق أسلوب الذم هو زيادة تسفيه المشركين .

قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ (التوبة / ٦ : ٩).

السياق فى تقبيح المشركين ، وإلهاب المؤمنين على القسوة عليهم ، وجريان الأسلوب دال على هذا ومرشد إليه ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ...) ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ...) ثم جاء الاستفهام المجازى مرة ثانية مؤكدا الاستفهام الأول ذاكرا العلة ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم ...) ثم تتابع التعليل تتابعا متصاعدا ، وكله يتظاهر على إلهاب المؤمنين فى معاداة المشركين . ثم جاءت جملة الذم خاتمة هذا التصعيد وذروته ، وقد وقعت جملة الذم خبرا لـ (إن) ، ووقعت جملة إن وما دخلت عليه «ابتدائية ، فصلت عن التى قبلها ليظهر استقلالها بالأخبار ، وأنها لا ينبغى أن تعطف فى الكلام ، إذ العطف يجعل الجملة المعطوفة بمنزلة التكملة للمعطوفة عليها ، وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم لهم[1]» .

والذى يبدو لى **أن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا فوق أنه فى تقبيح المشركين هو لإلهاب المؤمنين فى معاداة المشركين** ، وربما يقول قائل : إن هذا الغرض إنما جاء من السياق على أسلوب الذم ، لا من

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/١٢٦ .

الأسلوب نفسه ؟ وأقول : هذا صواب ، ولكن هل أسلوب الذم منفصل عن السياق السابق ، أم أنه تقرير لما مضى من قباحهم ، وإذا ما كان التقرير من دواعى التوكيد ، فالأسلوب يزيد من المعنى الذى قرره السياق ، أم ترى أن تقول إن الأسلوب يفيد تقبيح المشركين فقط ؟ وأقول لك : وهل السياق كله لا يفيد تقبيح المشركين . فالأمر بهذا التعانق الذى تبصر .

والكلام فى ساء الذى سبق فى دلالتها ترى العلماء[1] يقولونه هنا ، فهى إما أن تكون جارية مجرى (بئس) وهو الألصق بالسياق الذى يتظاهر على إلهاب المؤمنين فى معاداة المشركين بتقبيحهم - وإما أن تكون متصرفة ، وهو بعيد من التناغم مع السياق ؛ لأن السياق جار فى التقبيح ، وقد اصطفى (ساء) لأنها تتضمن التعجب فوق دلالتها على الذم ، وإنما اصطفيت على بئس لما فى السياق من الاستفهام التعجبى أو التعجيبى .

وقد جاء التعبير بـ (ما) تعميما لذم كل أعمالهم لأنها أوغل فى الإبهام ، وإن كان السياق يفسرها ، وفى الجمع بين الماضى والمضارع فى تابع (ما) ﴿كانوا يعملون﴾ إشارة إلى ﴿ دأبهم على هذه القبائح وتكرر تلك النقائص[2]﴾ .

والمخصوص بالذم هنا محذوف بعد تأخيره تعجيلا بمساءتهم ، وتناسبا مع مقصد الأسلوب من إلهاب المؤمنين ، وفى تأخيره أيضا - فوق ما جاء من تقديم المسند - زيادة تفظيع لأعمالهم تلك ، وفى حذفه إلماع إلى شيوعه واشتهاره .

---

(١) البحر المحيط ١٤/٥ ، إرشاد العقل السليم ٤٥/٤ ، ٤٦ ، روح المعانى ٥٧/١٠ ، التحرير والتنوير ١٢٦/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٦/١٠ .

وقد بين البقاعى ـ رحمه الله ـ مناسبة أسلوب الذم لما قبله فقال : ﴿ولما دل على ما أخبر به من فساد قلوبهم استأنف بيان ما استحقوه من عظيم الذم بقوله : ـ معجبا منهم ـ ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ وبين عراقتهم فى القبائح وأنها فى جبلتهم بذكر الكون . . .[1]﴾ .

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾ (النحل / ٢٤ ، ٢٥) .

السياق هنا ليس للتحسير والتنديم كالذى سبق فى سورة الأنعام ؛ لذا اختلف المقصد من سوق أسلوب الذم ، وهذا هو الذى أؤكد عليه أن أسلوب الذم المتفق فى تركيبه ، يختلف المقصد من سوقه فى كل سياق مثل أى أسلوب آخر كالاستفهام وغيره ، والظاهر ـ والله أعلم ـ **أن سوق أسلوب الذم هنا يقصد منه التحذير والتخويف** ، هكذا يوحى السياق الذى أحاط بالأسلوب من بين يديه ومن خلفه .

تأمل (إنه لا يحب المستكبرين ﴾ (النحل /٢٣) ، وما فيه من تهديدهم وتخويفهم ثم تأمل ما جاء عقب أسلوب الذم بما لا نظير له فى الذكر الحكيم بطريق الاستعارة التمثيلية ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ (النحل/٢٦) ثم تأمل ﴿ ثم هو يوم القيامة يخزيهم . . .﴾ (النحل/٢٧) . والمقام لا يسمح بالتوسع أكثر من هذا فى لحظ ما فى السياق الكريم من التظاهر على تحذيرهم .

هذا وفى السياق ما يطلب (ساء) تأمل : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم

(١) نظم الدرر ٣/ ٢٧٤ .

قالوا أساطير الأولين . ليحملوا . . .﴾ وكيف دلت اللام على قباحة عقلهم ، وسوء تفكيرهم بما يدعو للعجب ، أولئك قوم يفعلون ما المآل فيه حملهم أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم ، وكأن هذا الحمل الثقيل الخبيث ، أصبح هدفا لهم يسعون إليه ، هذا ما توحى به الاستعارة فى الحرف (اللام) فهو وزر قبيح عجيب ، ومن أجل هذا جئ بـ (ساء) التى تتضمن التعجب بعد إفادتها الذم .

وقد جاء أسلوب الذم بـ ألا الاستفتاحية ؛ إيذانا بالاهتمام ، وما ذكرته من المقصد يمكن أن تبصره فى كلام ابن عاشور فى الحديث عن دلالة أداة التنبيه ، فإنما افتتح بها إيذانا ﴿ بلاهتمام بما تتضمنه للتحذير من الوقوع فيه ، أو الإقلاع عنه [1]﴾

وللبقاعى ـ رحمه الله ـ رأى أخر فى (ألا) فهو يرى أن الهمزة للإنكار ، وأنها باشرت حرف النفى فصار إثباتا على أبلغ وجه [2]، وهو ـ والله ـ وجه ناظر إلى السياق ، فتناسب مع اللام فى قوله ﴿ليحملوا. . .﴾ التى تكشف عن غباوتهم ، وتصورهم باحثين عن هلكتهم متحملين ما يرهقهم .

وكون (ساء) جارية مجرى (بئس) هنا هو الراجح عند العلماء ، وإن كانوا قد ذكروا أنها يمكن أن تكون متعدية متصرفة [3]، ولكنك قد أبصرت أن السياق يتظاهر على حملها على بئس والكلام فى (ما) كالكلام فى أخواتها ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٣٣ .

(٢) نظم الدرر ٤/٢٥٩ .

(٣) الكشاف ٢/١٧ ، البحر المحيط ٤/١٠٧ ، ١٠٨ ، أنوار التنزيل ٣/١٧٥ ، إرشاد العقل السليم ٥/١٠٧ ، الفتوحات الإلهية ٢/٥٥٨ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٧١ .

وتوغلها فى الإبهام . يتلاءم وإرادة شمول شنائعهم وقبائحهم ، والمخصوص بالذم محذوف : والتقدير وزرهم هذا وقد قدم المسند تعجيلا بمساءتهم ، وهو الأنسب مع سياق التحذير ، وحذف المسند إليه بعد تأخيره تفظيعا له ، وإلماعا إلى شيوعه .

قال تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (النحل/٥٦ : ٥٩) .

الملحوظ أن هذا التركيب (ألا ساء ما يحكمون) ورد فى سورة الأنعام ، وفى سياق يقارب هذا السياق ، ومن أجل هذا التقارب ورد التركيب فى الموضعين ، فهناك قسموا الحرث بين الله وآلهتهم ، وقد ورد تلخيص له هنا فى صدر السياق (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) غير أنه هنا اختار أفظع وأقبح ما فعلوه ، وعرض تصرفاتهم نحوه كما تقول الآيات ، وتصرفاتهم قبيحة جدا ﴿ أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ﴾ . وكان ذلك أمرا شائعا بينهم ، وهو أقبح ما يكون وأفظعه ، ثم جاء أسلوب الذم مقررا لما مضى مؤكدا له ، قال البقاعى : ﴿ولما كان حكمهم هذا بالغا فى القباحة وصفه بما يستحقه ، فقال مؤكدا لقبحه : ألا ساء ما يحكمون [١]﴾ وهذا كاشف عن تناسب أسلوب الذم مع ما قبله .

والراجح أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) لتناسبه مع سياق التفظيع والتقبيح ، ويبدو أن المقصد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تفظيع

---

(١) نظم الدرر ٤/ ٢٨٠ .

أعمال الجاهلية .

والكلام فى (ما) كالكلام فى أخواتها فيما سبق ، وقد افتتح أسلوب الذم بأداة التنبية إيذانا بالاهتمام بمضمونه ، وقد سمى ما يصنعونه حكما ، لتواطئهم عليه ، وتعظم القبيحة باتفاق الناس عليها حتى يصير تركها هو القبيح!!

قال ابن عاشور : إنما سماه حكما لتمالئهم على ذلك ، فلا ينكره الجماعة على الفاعل وكأنه حق للأب [1]﴾ والمخصوص بالذم محذوف ، وفى تقديم المسند على المسند إليه تعجيل بمساءتهم ، وفى تأخير المسند إليه زيادة تفظيع وتقبيح له ، وفى حذفه دلالة على شيوعه ، وغنائه عن النص عليه ، والقبيح إذا بلغ حد الاشتهار المغنى عن النص عليه ، كان أفظع ما يكون . فقد تلاءم الحذف والتأخير وتقديم المسند مع مقصد الأسلوب ، ولا تقل إن الأسلوب بطبيعته يأبى التقديم ، وحذف مخصوصه أكثر من ذكره ، وأقول إنما اصطفاه الذكر الحكيم وسيلة بيانة لما فيه من هذه الإمكانات ، وذلك الثراء .

قال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ (الكهف/ ٤، ٥).

الظاهر أن (كبر) هنا تجرى مجرى (بئس) لأن السياق فى التشنيع على بعض مشركى العرب الذين ادعوا لله ـ سبحانه ـ ولدا ، والملحوظ أنه اصطفى (كبر) وفيها تنبيه على عظم ذلك من بين الأفعال كما قال الراغب [2].

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ١٨٥ .

(٢) المفردات (كبر) .

ولشناعة قولهم ذلك رجح العلماء كونها للذم على كونها للتعجب [1]، وذلك أن دلالتها على الذم تتضمن التعجب أيضا ، ولا أقبح ولا أعجب من هذا القول ، لذا وقع هنا استخدام (كبر) الدالة على الذم والمتضمنة التعجب تلاؤما مع هذا الفظع والفحش ، ومن أجل السياق أيضا رجح الزمخشرى قراءة النصب فى (كلمة) على قراءة الرفع لأن المعنى على قراءة النصب أبلغ وأقوى [2].

وفاعل (كبر) هنا محذوف و(كلمة) تمييز مفسر للفاعل المضمر ، والتقدير كبرت مقالتهم كلمة ، وفى حذفه إيماء إلى أن الكلمة ممقوتة مذمومة بنفسها ، بل بلغت التناهى فى الذم ، فما أذم من يقولها ، بل ما أذم من يؤمن بها ويعتقد بصدقها !!

والمخصوص بالذم محذوف ، وقد أجازوا أن يكون قوله تعالى : ﴿تخرج من أفواههم ﴾ صفة للمخصوص المحذوف ، وذلك مما يؤذن باستعظام هذه الكلمة ، لأن بعض ما يخطر بالبال لا يجترئ الإنسان على إظهاره باللفظ.

وقد كشف البقاعى عن أن أسلوب الذم جاء ذروة الكشف عن فظاعة قولهم ، بقوله : ﴿ ثم هول أمر ذلك بقوله تعالى : ﴿كبرت﴾ أى مقالتهم هذه كلمة ، أى : ما أكبرها من كلمة ، وصور فظاعة اجترائهم على النطق بها، بقوله تعالى : تخرج من أفواههم . . .[3]﴾

---

(١) البحر المحيط ٦/٩٧ ، أنوار التنزيل وزاده عليه ٣/٢٤٨ ، إرشاد العقل السليم ٥/٢٠٤ .

(٢) الكشاف ٢/٧٠٣ .

(٣) نظم الدرر ٤/٤٤٤ .

ويمكن تلخيص كلام ابن عاشور فى الكشف عن ثراء هذا التركيب ، فقد ذكر أن أسلوب الذم مستأنف للتشنيع ، وأن جملة الذم مقطوعة عما قبلها لأنها إنشائية ، والأولى خبرية ، وأن كبر مستعملة فى التعجيب من شناعة هذه الكلمة ، بقرينة المقام ، وقد ذكر أنه من أجل هذا مثلوا بهذه الآية لفعل المحولة التى لمعنى الذم[1] ، ومن كل ما مضى يظهر أن **المقصد من أسلوب الذم هنا تفظيع النطق بادعاء الولد لله** قال تعالى : ﴿ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً . خالدين فيه وساءلهم يوم القيامة حملا ﴾ (طه/ ١٠٠،١٠١) .

وقعت الآية الكريمة فى السورة الكريمة عقب قصة اليهود مع العجل وقصة السامرى وهذه الحلقة من قصص اليهود من خصائص السورة الكريمة إذ لم ترد قصة السامرى فى موضع آخر على كثرة ورود قصة موسى - عليه السلام - وقومه فى الذكر الحكيم .

وقد انتقل السياق من الحديث عن السامرى إلى الحديث عن القرآن الكريم ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ (طه/ ٩٩) . ووقع بعد ذلك جملة شرطية (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) ثم ترقى القرآن بالمعنى بعد ذلك (خالدين فيه) أى فى حمل هذا الوزر مما يهدد السامعين ، ويحذر المعرضين ، إذ الحمل وثقله والتعذيب المتسبب عنه حين يكون منقطعا يقدر على تحمله لأن مآله إلى الصرف ، ولكن حين ينبه على خلوده ، يحس بألم عذابه من أول لحظة ؛ ثم خطا النظم الكريم خطوة أعلى بعد الخطوة السابقة بأسلوب الذم ، فهو ليس حملا ثقيلا مخلدا فحسب ، وإنما هو من أذم الأحمال وأقبحها .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٢ .

والظاهر أن المقصد من ذلك زيادة تهديد وتحذير المعرضين عن ذكر الله من أجل ذلك جاء هذا الأسلوب ، حتى لو كان الإعراض ممن كان حبيب ربه قبلا ، والسامرى مثال منصوب على ذلك فى السياق الكريم ﴿فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه . . .﴾ عذاب فى الدنيا وعذاب فى الآخرة ، كذلك كل معرض عذاب فى الدنيا زائل وعذاب فى الآخرة خالد .

ومن أجل هذا السياق الذى يكشف عن قبح من كان مع الله ، ثم آتاه الله علما فأعرض عن ذكر ربه فضل وأضل ، من أجل هذا جاء أسلوب الذم بـ (ساء) تعجبا من قبحه وقبح من سار سيرته .

وقد رجح عند العلماء أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس) على كونها (ساء) المتصرفة ، فقد ذكروا أن إجرائها على معنى (أخذت) يغيث البلاغة ويقعد بالمعنى [(١)]، وقد ذكر ابن عاشور أن أسلوب الذم حال ثانية[(٢)] وعليه فالواو واو الحال ، فلا إشكال فى مسألة العطف بين الخبر والإنشاء ، والتقدير خالدين ومسوئين ، وفاعل ساء هنا محذوف ، وكذلك المخصوص ، والتقدير :وساء حملهم حملا وزرهم ، والملحوظ هنا تتابع هذين القيدين ﴿لهم يوم القيامة﴾ فوق أنه أعاد يوم القيامة ، زيادة فى تقريره ، إذ هو محل الإنذار والتخويف ووقت الحساب والتعذيب ، وقد قدم لهم إمعاناً فى مساءتهم، وزيادة تنكيل لهم . لذا قال أبو السعود : وقد أعيد ذكر يوم القيامة زيادة فى التقرير وتهويلا للأمر [(٣)].

---

(١) أنوار التنزيل ٣/ ٣٣١ ، نظم الدرر ٥/ ٤٥ ، إرشاد العقل السليم ٦/ ٤٠ ، زاده على البيضاوى ٣/ ٣٣١ ، روح المعانى ١٦/ ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠٣ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٦/ ٤٠ .

وقد ذكروا أن اللام فى (لهم) جئ بها « لزيادة تبيين تعلق الذم بحمله ، فاللام لبيان الذين تعلق بهم سوء الحمل [1]» .

وكل هذه الخصائص التركيبية تتناسب والمقصد من الأسلوب المتظاهر على تهديد المعرضين عن ذكر الله ـ عز وعلا ـ ، وقد قدم المسند (وساء . . .) تعجيلا بمساءتهم ، وتتاسبا مع المقصد ، وفى تأخير المسند إليه ثم حذفه إلماع إلى الشيوع والاشتهار ، فى أنه جمع كل المذام .

قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ (العنكبوت / ٤) .

سبق أسلوب الذم هنا بأسلوبين استفهاميين إنكاريين (أحسب الناس أن يتركوا . . .) (أم حسب الذين يعملون السيئات. . .) ثم جاء بعد ذلك أسلوب الذم تقريراً لمعنى الإنكار ، قال ابن عاشور : «وجملة : ساء ما يحكمون) ذم لحسبانهم ذلك وإبطال له ، فهى مقررة لمعنى الإنكار فى جملة: أم حسب [2]» ومعنى ذلك أن **أسلوب الذم يفيد زيادة الإنكار عليهم فى اعتقادهم أن يفوتوا الله** ، ويرشح لذلك ما ذكره البقاعى رحمه الله : «ولما أنكر هذا عجب ممن يجول ذلك فى صدره تعظيما لإنكاره ، فقال : (ساء ما يحكمون) أى : ما أسوأ هذا الذى أوقعوا الحكم به لأنفسهم ، لأن أضعفهم عقلا لا يرضى لعبيده أن يظلم بعضهم بعضا ، ثم لا ينصف بينهم ، فكيف يظنون بنا ما لا يرضونه لأنفسهم [3]».

وإجراء (ساء) مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء فى هذا الموضع ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠٧ .

(٣) نظم الدرر ٥/ ٥٣٧ .

وإن كانوا قد أجازوا عدها تعجبا أو متصرفة ، غير أن الوجه الأول هو الراجح عندهم [1]، واستخدام ساء هنا هو الألصق بالسياق الذى يتظاهر على التعجيب من قبح أفكارهم ، فلم يناسبه إلا (ساء) لدلالتها على الذم وتضمنها التعجب .

والكلام فى (ما) كالكلام فى أخواتها ، وقد عبر بالمضارع فى (يحكمون) إشارة إلى أن ذلك دأبهم وديدنهم ، وفى تقديم المسند تعجيلا بمساءتهم ، ومسارعة إلى تقبيحهم ، وهو ما يتناسب وزيادة الإنكار عليهم فى سوء معتقدهم ، والمخصوص بالذم محذوف إلماعا إلى اشتهاره ، أى أنه متعارف مشتهر ما يجمع المذام ، وهو ما مضى فى السياق .

قال تعالى : ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ (غافر/ ٣٤، ٣٥) .

السياق الكريم فى ذم فرعون ـ لعنه الله ـ وأسلوب الذم فى سياق قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لم يرد فى غير هذا الموضع ، على كثرة ورود قصته ـ عليه السلام ـ فى الذكر الحكيم ، وقد سبق فى السياق حوار طويل بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون ، وآخر بين مؤمن قوم فرعون وقوم فرعون .

وقد كان التكبر ظاهرا فى المحاورة بدون حجة ، تأمل : «فلما جاءهم

---

(١) أنوار التنزيل وزاده عليه ٤/٤ ، إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٨ ، روح المعانى ٢٠/ ١٣٧، التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠٧ .

بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين . . .» ثم قال مصعدا غشمه ، ومعلنا عنفوان ظلمه « وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه . . . » فلا حديث له إلا القوة والغشم ، ولا حجة له تسانده إلا التكبر والغطرسة ، من أجل ذلك كان جواب موسى عليه السلام «وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب» كذا جاء قبل أسلوب الذم «كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب» وجاء بعد الأسلوب «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» تناسبا مع ما سبق فى السياق ، ومع ما جاء بعد ، ألا تراه أمر الملعون هامان» ببناء صرح يطلع عليه إلى إله موسى . وهكذا ترى السياق كله يتظاهر على بيان تكبر فرعون لعنه الله .

والظاهر أن أسلوب الذم قد جاء فى سياق كلام مؤمن آل فرعون ، وأنه من كلامه لذا عاد الحديث إلى قول فرعون ، ثم إلى رد المؤمن ، وحديث المؤمن تتظاهر حججه ويقوى سلطانه ، وحديث فرعون يتظاهر كبره ويتعاظم غشمه كلما قويت حجة المؤمن .

والظاهر أن أسلوب الذم (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) وقع خبر الاسم الموصول (الذين يجادلون. . .) من باب الإخبار بالإنشاء ، وعد هذا الأسلوب (كبر مقتا) أسلوب ذم ، وإجراء (كبر) مجرى (بئس) هو الراجح ، وقد كشف العلماء عن ذلك بقولهم على هذا الأسلوب (كبر مقتا) «فيه ضرب من التعجب والاستعظام[1]» وهو «تقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم ، وفيه ضرب من التعجب والاستعظام[2]» .

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٧٠ .
(٢) روح المعانى ٦٨/٢٤ .

وإنما ذم هذا النوع من الجدال ، لأن «المقصود منه كم فم الحق[1]» وقد ذكر ابن عاشور أيضا ، أنه يفهم من الموصول وصلته ذم جدالهم ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان (أتاهم) يقصد هذا القيد (بغير . . .) وبعد ذلك جاء أسلوب الذم ، «وبهذا تفظيع بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أن جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإضلال المكين ، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقى الكناية والتصريح[2]» والمقت أشد البغض وفيه كناية عن شدة العقاب ، وهذا القيد (عند الله) فيه تشنيع وتفظيع له ، **فالغرض من أسلوب الذم تشنيع وتفظيع الجدال فى آيات الله بغير حجة ولا برهان** ، والمخصوص بالذم محذوف وكذلك الفاعل تلاؤما مع سياق التفظيع .

قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (الجاثية/ ٢١).

هذه قبيحة أخرى من قبائح الكافرين ، تقارب القبيحة السالفة ، فقد ظنوا هناك أن الله لن يقدر عليهم ، وهنا ظنوا أن الأمر مستو بينهم ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويبدو أن أحد الاعتقادين مؤسس على الآخر ، وقد وقع أسلوب الذم هنا فى سياق استفهام إنكارى ،

واعتقادهم التسوية اعتقاد قبيح ، وإيمانهم به إيمان عجيب ، كاشف عن عظيم تكبرهم ، وخبيث طبائعهم ، لذا وقع أسلوب الذم «تذييلا لما قبله[3]»

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٤٣ .

(٢) السابق ٢٤/١٤٣ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/٣٥٥ .

متضمنا زيادة الإنكار عليهم فى هذا الاعتقاد ، وفيه تهديد للكافرين وتطمين للمؤمنين وإغراء على صالح الأعمال ، ويبدو أن هذا هو المقصد من سوق الأسلوب ، ويمكن أن يقال بأسلوب موجز الغرض : تطمين المؤمنين ، وتخويف الكافرين .

والقول بأن (ساء) جارية مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء ، وقد ذكروا أن تسمية معتقدهم هذا (حكما) تهكم بهم ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هذا[1] ، حذف تحقيرا له ، أو حذف إلماعا إلى اشتهاره ، فجمعه للمذام أشهر من أن ينص عليه ، والكلام فى (ما) كالكلام فى أخواتها .

وقد كشف البقاعى عن تناسب الأسلوب مع ما قبله فقال : «ولما كان هذا مما لا يرضاه أحد لمن تحت يده ، ولا لغيره ، قال : ـ معبرا بمجمع الذم ـ (ساء ما يحكمون [2]) .

(١) أنوار التنزيل وزاده عليه ٤/ ٣٢٥ ، إرشاد العقل السليم ٨/ ٧١ .
(٢) نظم الدرر ٧/ ١٠٢ .

قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ (المجادلة / ١٤ ، ١٥) .

المنافقون يشبهون اليهود فى كثير من تصرفاتهم ، ومنها ما هو مذكور فى هذا الموضع ، إذ هم يتولون غير المؤمنين ، كأنهم يعمدون إلى غضب ربهم عليهم ، ويجعلون غضب الله غرضا يسعون إليه كاليهود فيما جاء فى سورة المائدة ﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون﴾ (المائدة/ ٨٠) .

والسياق هنا يصعد بيانه فى ذمهم (ما هم منكم ولا منهم) (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) ثم ترى فى هذا الوصف الذى أعقب القوم الذين يتولونهم (غضب الله عليهم) فالتراكيب متصاعدة فى تقبيحهم ، ثم جاءت جملة الذم خبرا (لإن) وقد وقعت (إن) ومدخولها ، «موقع التعليل لإعداد العذاب الشديد لهم [١]» ، وما أغنى ربنا عن التعليل ، غير أنه ذكر ما ذكر زيادة فى الإنصاف .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التنفير من موالاة المغضوب عليهم . وكون (ساء) جارية مجرى (بئس) هو الألصق بهذا السياق المتظاهر على تقبيح المنافقين ، وقد جمع بين الماضى والمضارع فى الجملة التابعة (لأن) ؛ إيذانا بتكرر ذلك منهم ، ودأبهم عليه قديما وحديثا وهذا أنسب لموقع التعليل . وفى الأسلوب جناس بين (يعلمون) فى

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧/٤٩ بتصرف .

الآية السابقة على الأسلوب و (يعملون) كشف هذا الجناس عن تعمدهم إغضاب الله .

وقد حذف المخصوص بالذم محذوف بعد تأخيره معاجلة بمساءتهم بتقديم المسند ، وفى حذف المسند إليه إلماع إلى اشتهاره ، أى أن جمع موالاة غير الله للمذام أشهر من أن ينص عليه .

وقد كشف البقاعى عن المناسبة للأسلوب فقال : «ولما أخبر بعذابهم علله بما دل على أنه واقع فى أتم مواقعه ، فقال ـ مؤكدا تقبيحا على من كان يستحسن أفعالهم ـ (إنهم ساء) أى بلغ الغاية مما يسوء [1]» وقد جاءت هنا (ساء) ولم تجئ (بئس) لما تتضمنه الأولى من التعجب ، وما صنعه المنافقون قبح يدعو للعجب ، إذ يطلبون غضب الله بموالاتهم المغضوب عليهم .

قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ (المنافقون/ ١ ، ٢) .

تلك عادة المنافقين الكذب فى الحديث ، والاستهانة بأيمان الله ، فأولئك يشترون بأيمان الله ثمنا قليلا ، والسياق هنا متقارب من السياق هناك فى سورة المجادلة ، إذ قد ذكر هناك أنهم (يحلفون على الكذب وهم يعلمون) ، وقد رجح العلماء أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس[2]) إذ هذا النظر فى المعنى هو الألصق بالسياق الذى يتظاهر على الكشف عن تعمد المنافقين الكذب متخذين أيمان الله وقاية لهم ؛ ابتغاء الحياة الدنيا ، واستهانة بالله ـ عز وعلا ـ

(١) نظم الدرر ٧/ ٥٠٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٥٠ ، نظم الدرر ٧/ ٦٠٧ ، التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٣٦ .

فما أقبحها طريقة ، وما أخبثه نهجا ، من أجل ذلك جاء أسلوب الذم .

وقد جاء أسلوب الذم خبر الـ (أن) ، وقطعت جملة (إن) ومدخولها عما قبلها لاختلافهما خبرا وإنشاء لفظا معنى ، والقول فى (ما) هنا كالقول فى أخواتها، والقول فى حذف المخصوص بعد تأخيره ، وتقديم المسند كالقول فى الآية السالفة .

وقد كشف البقاعى عن المناسبة لأسلوب الذم فقال : «ولما كان ما أخبر به من حالهم فى غاية القباحة ، أنتج قوله : (إنهم ساء) وأكده ، لأن حالهم يعجبهم ، ويعجب كثيرا ممن قاربهم (ساء ما كانوا يعملون) أى جبلة وطبعا[1]» يريد ـ رحمه الله ـ أن يكشف عن سر الجمع بين الماضى والمضارع فى (كانوا يعملون) مما يكشف أن ربنا لا يأخذ المذنب بذنب واحد ، وإنما يأخذ من فجر بتكرار تعمد الذنب واستمرائه . والظاهر أن المقصود من أسلوب الذم هنا زيادة فضح المنافقين والتنفير منهم .

---

(1) نظم الدرر ٧/٦٠٧ .

أسلوب الذم فى سياق التحذير من اتباع الشيطان

قال تعالى : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا» (النساء/ ٣٨).

الآيات الكريمات فى هذا السياق للبخل هذه الآية ، والتى قبلها والتى بعدها وكاد البخل أن يكون كفرا كما يكشف سياق الآيات «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا» (النساء/ ٣٧) حين تبصر التذييل الذى ختمت به الآية الكريمة تعلم أن البخل يوشك أن يكون كفرا والآية التى فيها أسلوب الذم تتناول الذين ينفقون أموالهم رياء ، وكأنه ضرب من البخل إذ هؤلاء الذين يراءون بالإنفاق يبتغون النفع ، فكأنهم يمتطون الإنفاق تجارة ، ولولا فوائد الرياء ما أنفقوا ، هذا ما أبصره فى مجئ الآية الكريمة فى سياق الحديث عن البخل ، ألا ترى أنه قال بعد ذلك : ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ﴾ (النساء/ ٣٩) .

فكأنهم لا يؤمنون بما ادخره الله للمنفقين من الثواب ، وطريق الإنفاق يرصد عليه شياطين كثيرون ، إما أن يمنعوا المنفق الإنفاق ، وإما أن يدفعوه للرياء فيفسدوه عليه ، من أجل ذلك قال ربنا : (ومن يكن الشيطان له قرينا) فالمرائى له الشيطان قرن يزين له الرياء ، ثم جاء أسلوب الذم مؤكداً لكل ذلك، منفرا من البخل والرياء ، والذى يظهر لى **أن المقصد هنا من أسلوب الذم ، زيادة التحذير من البخل والرياء** ، ببيان أنه من عمل الشيطان .

وقد رجح أبو حيان أن تكون (ساء) هنا جارية مجرى (بئس[1])

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٠٩ .

فـ (ساء) هنا تفيد المبالغة فى الذم ، وجاء بـ (ساء) ولم يجئ بـ (بئس) ، لتضمن (ساء) التعجب إذ من العجيب أن يتخذ الناس الشيطان قرينا وصاحبا ، فناسب هذا المعنى (ساء).

والملحوظ هنا أن (ساء) اقترنت بالفاء ، وذلك لوقوعها جواب شرط ، وهذا دليل على وجوب استخدامها فى الذم ، إذ لو كانت متعدية لما اقترنت بالفاء .

والفاعل هنا ضمير مستتر تقديره هو ، أو يمكن أن يكون التقدير فساء قرينهم قرينا الشيطان [1]. وإنما حذف لتنصب الصورة على مجاورة ساء لقرينا، مما يوحى بذم القرناء جميعا إن كانوا بهذا الفساد ، وفى تقديم المسند (ساء) معاجلة بوصفه بالذم تناسبا مع مقصد التحذير من البخل والرياء ، وفى حذف المخصوص إلماع إلى اشتهاره وتعينه فى جمع كل المذام .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ (الكهف/ ٥٠) .

السياق هنا يبغض الشيطان إلى ابن آدم بذكر أمر العداوة الأول ، لابن آدم ، وقد سبق أسلوب الذم باستفهام إنكارى تعجبى ، ثم جاء أسلوب الذم مؤكدا هذا الإنكار ، وقد جاءت جملة الذم «مستأنفة لإنشاء الذم[2]» ، وقد كشف البقاعى عن تناسب أسلوب الذم مع ما قبله فقال : ﴿ولما كان هذا الفعل أجدر شئ بالذم وصل به قوله تعالى : ﴿ بئس[3]﴾ .

---

(١) زاده على البيضاوى ٢/ ٣٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٢ .

(٣) نظم الدرر ٤/ ٤٧٦ .

وفاعل (بئس) محذوف ، و (بدلا) تمييز مفسر لاسم بئس المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز عن طريق الإجمال ثم التفصيل[1] ، وقد ذكروا أن (للظالمين) إما أن تكون حالا من (بدلا) ، وإما أن تكون متعلقة بـ(بئس)[2]، وفى الكلام خروج على خلاف الظاهر فقد كان أصل الكلام (بئس لكم بدلا) ، غير أنه أظهر فى موضع الإضمار «للإيذان بكمال السخط، والإشارة إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح لا يخفى ، وفى ذلك تشهير بهم»[3] . والمخصوص بالذم محذوف وتقدير الكلام : بئس للظالمين بدلا من الله إبليس وذريته[4].

والظاهر أن فى حذف المخصوص إسقاطا له عن درجة الاعتبار ، وفى تقديم المسند تعجيل بمساءتهم ، **والظاهر أن المراد من سياقة أسلوب الذم ، وزيادة إظهار سخط الله على متبعى الشيطان** ، وفيه أيضا زيادة تنفير من الشيطان .

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (الزخرف/ ٣٦ : ٣٨) .

ورد أسلوب الذم هنا على لسان الحق عز وعلا حكاية عن متبعى الشيطان وهى طريقة غير طريقة الموضعين السابقين ، فقد كان الذم فيهما من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإذا كان الذم وارداً من القرين للقرين كان أشد وأنكى

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٢ .
(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ٥٥ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٢٨ ، نظم الدرر ٤/ ٤٧٦ ، روح المعانى ١٥/ ٢٩٥ ، التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٢ .
(٤) أنوار التنزيل ٣/ ٢٦٤ بهامش حاشية زادة .

فى التنفير من هذه المقارنة ، وقد سبق أسلوب الذم بأسلوب تمن لا نظير له فى الذكر الحكيم ﴿ يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين ﴾ أرأيت تمنى البعد الذى يكشف عن التحسر والتندم ، وعند ابن عاشور أن الفاء فى (فبئس) فاء التفريع حيث قال : ﴿وقوله : (فبئس القرين) بعد أن تمنى مفارقته فرَّع عليه ذما ، فالكافر يذم شيطانه الذى كان قرينا ، ويعرِّض بذلك للتفصى من المؤاخذة ، وإلقاء التبعة على الشيطان الذى أضله ،

والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التى كانت شغف المتقارنين ، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سئ العاقبة ، وهذا من قبل قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ والمقصود تحذير الناس من قرين السوء وذم الشياطين ليعافهم الناس [(1)]﴾ .

نور الشيخ بكلامه هذا إلى المقصد ، وكشف عن تناسب الأسلوب مع السياق بذكر آية الأخلاء ، التى لا نظير لها فى الذكر الحكيم فى غير هذا الموضع ، وكأن آية التحذير من الشيطان جاءت توكيدا وبيانا لطريقة عداوة الأخلاء .

وقد ذكر البقاعى أن الفاء سببية ، وذلك فى قوله : ﴿ ثم سبب عن هذا التمنى قوله ـ جامعا له أنواع المذام ﴿فبئس القرين[(2)]﴾ وإنما التناسب فى العموم فى الأسلوب فلا أعم من بعد المشرقين ، ولا أجمع للمذام من ﴿بئس﴾ .

وعند أبى حيان أن المقصود : المبالغة منه فى ذم قرينه إذ كان سبب إيراده النار [(3)]، ويمكن أن نخلص من هذا كله **أن المقصد من سوق أسلوب الذم،**

---

(1) التحرير والتنوير ٢٥/٢١٣ ، ٢١٤ .

(2) نظم الدرر ٧/٢٩ .

(3) البحر المحيط ٨/١٧ .

تفظيع عواقب مقارنة الشيطان تحذيرا للناس منها ، وأضيف لمحة أخرى هى أن المقصد زيادة إظهار التندم والتحسر من مقارنة الشيطان ، وإنما أبصرت ذلك ، من مجئ أسلوب الذم بعد أسلوب التمنى الكاشف عن شدة ، التحسر والتندم ، وعلى أى حال كل ذلك يؤدى إلى التحذير من مقارنة الشيطان .

وفى تقديم المسند ﴿فبئس القرين﴾ تعجيلا بمساءة الشيطان من قرينه ، والمخصوص بالذم محذوف قدره البيضاوى (أنت[1]) أى فبئس القرين أنت ، وفى حذفه بعد تأخيره مبالغة فى إسقاطه عن درجة الاعتبار فى أمر المقارنة ، وكشف أن مقارنته كلها كانت ضررا ولا نفع فيها .

(١) أنوار التنزيل ٤/٢٩٧ .

قال تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾ (النساء/ ٢٢) .

جاء أسلوب الذم فى سياق هدم ما كان فى الجاهلية ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه فى النهى عن نكاح ما نكحه الآباء من النساء ، وقد جاء بعد النهى جملة مقطوعة عما قبلها لاختلافهما خبرا وإنشاء لفظا ومعنى ، «إنه كان فاحشة ومقتا » فهو عند الله فاحشة ، وممقوت عند ذوى المروءات ، وكل ذلك ذم له يتصاعد ، ثم جاء أسلوب الذم بعد ذلك ، بالواو وقد ذكروا أن جملة الذم إما أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فالواو على ذلك استئنافية ، وإن كانت الواو للعطف فالتقدير واجب أى مقولا فى حقه ساء سبيلا [1]، وبهذا يرتفع إشكال العطف بين الخبر والإنشاء .

وأسلوب الذم فيه مبالغة[2] أى : **زيادة تحذير من ارتكاب مناكحة ما نكح الآباء من النساء** ، وفاعل (ساء) هنا مضمر مفسر بما بعده ، والتقدير ساء السبيل سبيلا وإجراء (ساء) مجرى (بئس) هو الراجح عند العلماء [3]، والمخصوص بالذم محذوف تقديره هو أو هذا مدلول عليه بالسياق ، وفى تقديم المسند تعجيل بمساءته تناسبا مع سياق التحذير والتنفير ، وفى حذفه إلماع إلى اشتهاره أى أن جمعه للمذام أشهر من أن ينص عليه لمعرفة الكل به . ولعل فى التعبير بالسبيل هنا مجازاً لتصوير اشتهار ذلك بينهم فى الجاهلية حتى

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ١٥٩ .

(٢) البحر المحيط ٣/ ٢٠٩ .

(٣) أنوار التنزيل وزادة عليه ٢/ ٢١ ، إرشاد العقل السليم ٢/ ١٥٩ ، روح المعانى ٤/ ٢٤٩ .

صار طريقا ونهجا ، وهذا مما يتناسب أيضا مع سياق التحذير منه .

قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (الإسراء/ ٣٢) كأنى بالذكر الحكيم ينادى على أن مناكحة الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء من أبغض الزنا ؛ لذا كان التعقيب على النهى عنهما متحدا فى الأسلوب ، غير أن توارد الأبناء على نساء آبائهم أنكى وأشد ؛ لذا قال هناك : (فاحشة ومقتا) .

والقول فى الواو المقارنة لـ (ساء) هنا كالقول فى نظيرتها السالفة ، ويبدو أن المراد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة التحذير من الزنا بتفظيعه ، والملحوظ هنا أنه نهى عن المقاربة (ولا تقربوا) ، والنهى عن مقاربة الفحش أبلغ من النهى عنه ، ومن أجل أسلوب المبالغة هذا فى النهى جئ بأسلوب الذم تناسبا معه .

وقد ذكروا أن التعبير عنه بالسبيل يدل على كثرة متعاطيه بالدلالة على سعة منهجه [(١)]، وفى التعبير به استعارة حيث استعير السبيل «للفعل الذى يلازمه المرء ، ويكون له دأبا استعارة مبنية على استعارة السير للعمل كقوله : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى﴾ فبنى على استعارة السير للعمل استعارة السبيل له بعلاقة الملازمة [(٢)]» .

وفاعل ساء مضمر مفسر بما بعده ، ولاتقدير كما قالوا : وساء سبيلا سبيله[(٣)] والقول فى تقديم المسند ، وتأخير المسند إليه مع حذفه كالقول فى

---

(١) نظم الدرر ٤/ ٣٧٨ .

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٩٠ .

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣ ، أنوار التنزيل ٣/ ٢٢٢ ، إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٠ ، روح المعانى ١٥/ ٦٧ .

الآية نظيرتها .

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (الحجرات/ ١١) .

جاء أسلوب الذم هنا تذييلا للمنهيات المتقدمة (السخرية ـ اللمز ـ التنابز بالألقاب) ونمط الأسلوب هنا نمط فريد متناسب مع المنهيات السابقة ، لأنه يكثر الوقوع فيها ويستصغرها الواقعون فيها ، وقد جاء أسلوب الذم تذييلا للمنهيات المتقدمة ، وهو «تعريض قوى بأن ما نهوا عنه فسوق وظلم[١]» ، والإسم هو الذكر أى التسمية «والمعنى : بئس الذكر أن يذكر أحد بالفسوق بعد أن وصف بالإيمان [٢]» «وإيثار لفظ الاسم هنا من الرشاقة بمكان ، لأن السياق تحذير من ذكر الناس بالأسماء الذميمة ، إذ الألقاب أسماء ، فكان اختيار لفظ الاسم للفسوق مشاكلة معنوية ، ومعنى البعدية فى قوله : بعد الإيمان ، بعد الاتصاف بالإيمان [٣]» ويؤيد كلامه رحمه الله ـ أن هذا اللفظ (الاسم) لم يرد فى غير هذا الموطن فى الذكر الحكيم .

وشئ آخر يتناسب مع المقصد من أسلوب الذم ، وأن الاسم الواصف لارتكاب هذه المنهيات جامع للمذام ، فإذا ما كان الاسم جامعا لكل المذام ، فالموسوم أذم وأقبح ، وكل هذا يتناسب مع ما يستصغره الناس من ارتكاب هذه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٤٩ .

(٢) أنوار التنزيل وزاده عليه ٤/ ٣٧٣ ، إرشاد العقل السليم ٨/ ١٢٠ ، روح المعانى ٢٦/ ١٥٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٠ .

المنهيات ، ويكون المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التحذير والتنفير من ارتكاب السخرية واللمز والتنابز .

وقد ذكروا أن جملة الذم تعليل للنهى السابق [(١)]، وقد كشف البقاعى المناسبة فقال : «ولما كان الإيمان قيد الأوابد (العصيان) وكان النبز والسخرية ، قطعا لذلك القيد علل بما يؤذن بأنه فسق معبرا بالكلمة الجامعة المذام تنفيرا من ذلك فقال : بئس الاسم . . .[(٢)]» .

وقد ذكروا أن الاسم هو الفاعل ، وذكر بعضهم أن (الفسوق) [(٣)]، واستحسن الشيخ الجمل أن يكون هو المخصوص بالذم [(٤)]، وهو الراجح فيما أبصر ، وفى التقديم تعجيل بذم هذا الاسم (هذا الوصف) ، وتأخير المخصوص يجعله أقعد فى المعنى لنيله بعد الطلب .

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (الصف/ ٢ ، ٣) .

جاء أسلوب الذم هنا بيانا لجملة (لم تقولون ما لا تفعلون) وهذه الجملة، فيها إنكار على المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون ، ففيها تقبيح لهذا الفعل بالفحوى .

وأسلوب الذم تقبيح لهذا الفعل تصريحا ، والمقت أشد البغض ، وقد جاء تمييزا لـ (كبر) ، وفاعل (كبر) محذوف والتقدير كبر المقت مقتا عند الله . . . ﴿وأن تقولوا . . .﴾ هو المخصوص بالذم ، وقد ﴿ نظم هذا الكلام

(١) زاده على البيضاوى ٤/ ٣٧٣ .

(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٣٣ .

(٣) زاده البيضاوى ٤/ ٣٧٣ .

(٤) الفتوحات الإلهية ٤/١٧٨ .

بطريقة الإجمال ثم التفصيل بالتمييز **لتهويل هذا الأمر فى قلوب السامعين لكون الكثير منهم بمظنة التهاون فى الحيطة [1]﴾** وهذا المذكور هو المقصود من إيراد أسلوب الذم فى هذا الموضع ، والراجح عند العلماء أن تكون (كبر) هنا جارية مجرى (بئس) ، وقد قدموا إجراءها مجرى بئس على دلالتها على التعجب [2]، قال أبو السعود فى جملة الذم ﴿ بيان لغاية قبح ما فعلوه وفرط سماجته ، وكبر من باب ﴿ نعم وبئس﴾ . . . وقيل : قصد منه التعجب [3]﴾

ويرى البقاعى أن تعظيم وتجريم القول وعدم الفعل فيه رحمة بالمؤمنين قال : «ولما كان ذلك مهلكا رحم المخاطبين بتعظيمه ، لينجوا أنفسهم بالكف عنه ، فقال : (كبر) فقصد به التعجيب ، وهو تعظيم الأمر فى قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا فى أمر خارج عن نظائره وأشكاله ، وفسر ما قصد منه ، للدلالة على خلوصه فى المقت بقوله : (مقتا) أى عظم جدا ، وما أعظمه من بغض هو أشد البغض ، وزاد فى تشنيعه زيادة فى التنفير منه بقوله : ﴿عند الله[4]﴾ .

وقد نبه ابن عاشور على نكتة حذف الفاعل (كبر مقتا) وأن القصد منه زيادة التهويل بإعادة لفظه ولإفادة التأكيد [5].

ومعلوم أن فى تأخير المسند إليه مزيد تشوق لمعرفته ، بما يجعله بعد نيله أقعد فى النفس ، وأدخل فى القلب ، فينتزجر المؤمن من اقتراب ذلك ، وفى إعادته مع أسلوب الذم ، بعد ذكره مع أسلوب الإنكار مزيد تهويل له يتناسب مع مقصد الزجر عنه والتحذير منه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٧٦ .

(٢) الكشاف ٤/ ٥٢٣ ، أنوار التنزيل وزاده عليه ٤/ ٤٨٨ ، روح المعانى ٢٨/ ٨٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٨/ ٢٤١ .

(٤) نظم الدرر ٧/ ٥٧٢ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٧٦.



أسلوب الذم فى سياق تعذيب بعض الغابرين

قال تعالى : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ـ قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ (الشعراء / ١٦٧ : ١٧٣) .

قال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ (النحل / ٥٤ : ٥٨) .

السياقان متقاربان ـ كما ترى ـ **والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد من سوق أسلوب الذم فى الموضعين زيادة تفظيع مآل المعاندين الكافرين ـ** والراجح عند العلماء فى هذين الموضعين [(١)]، وقد عاقبهم الله بالمطر بعد ما أصروا على الفاحشة ، بل بعد ما هددوه بإخراجه من قريتهم ، والملحوظ أنه فى الموضعين وقع مفعول مطلق (وأمطرنا عليهم مطرا) أى : أى مطر هذا ، وأى هول ذلك .

وقد كشف البقاعى ـ رحمه الله ـ عن المناسبة ، وعن جمال التراكيب فقال : ﴿ وأشار إلى سوء الأثر لاستلزامه سوء الفعل الذى نشأ عنه ، وغرابته بقوله (مطرا) أى : وأى مطر ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فساء . . .﴾ أى

---

(١) أنوار التنزيل وزاده عليه ٣/٤٧٨ ، إرشاد العقل السليم ٦/٢٦١ ، روح المعانى ١٩/١١٧ ، نظم الدرر ٥/٣٨٥ ، التحرير والتنوير ١٩/١٨١ .

الذين وقطع إنذارنا لهم الإنذار الذى هو الإنذار [1]﴾ .

أى أن مجئ المفعول المطلق (مطرا) أفاد التهويل ، وأسلوب الذم أفاد التفظيع ، ومعلوم أن اللام فى (المنذرين) هى لام الجنس أى أن هذا المطر جمع مذام أمطار كل المنذرين ، وفى هذا تناسب مع التفظيع ، وفى التعبير بالمنذرين ﴿ تسجيل عليهم بأنهم أنذروا فلم ينذروا [2]﴾ .

وشئ آخر يؤخذ من إسناد (ساء) إلى مطر ، وهو أنه إذا ما كان المطر جامعا لكل المذام ، فكيف بالمطرين المعاندين ، ما من ريب أنه مطر ساحق ماحق ، ﴿والمخصوص بالذم محذوف ، تقديره : مطرهم [3]﴾ وفى هذه الإضافة زيادة تفظيع فهو مطر خاص بهم مسلط عليهم ، ملازم لهم ، لا يتركهم إلى سواهم ، وفى تقديم المسند تعجيل بذم المطر المستلزم ذم الممطرين بطريق أبلغ ، وفى حذفه بعد تأخيره تفظيع له بالتنبيه على اشتهاره اشتهاراً يغنى عن النص عليه .

قال تعالى : ﴿ فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ (الصافات/ ١٧٤ : ١٧٧) .

هذه الآيات فى إنذار المشركين وقد جاءت بعد الحديث عن الأمم الغابرة، وقد وقع أسلوب الذم جوابا بالشرط ، (فإذا نزل بساحتهم) ، والشرط وجوابه.

---

(١) نظم الدرر ٥/ ٤٣٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٨١ .

(٣) أنوار التنزيل ٣/ ٤٧٨ .

استعارة تمثيلية مكنية ﴿ فقد شبهت هيئة حصول العذاب لهم بعد ما أنذروا به ، فلم يعبأوا بهيئة نزول جيش عدو فى ساحتهم ، بعد أن أنذرهم به النذير العريان ، فلم يأخذوا أهبتهم حتى أناخ بهم [1]﴾ وأنت تخال العذاب بالاستعارة جيشا جراراً أقبل بليل ، ثم صبحهم ، وهم نائمون فتغافلهم ، وباغتهم ، والمباغتة بالعذاب عذاب فوق العذاب .

وشئ آخر تلحظه فى الإسناد (فساء صباح المنذرين) مجاز عقلى بعلاقة الزمانية ، صور لك إحاطة العذاب بهم حيث شمل الزمان كله ، والزمان محيط بهم لا ينفكون عنه .

وإجراء (ساء) مجرى بئس هو الراجح عند العلماء [2]، وفى إضافة فاعل ساء إلى المنذرين تسجيل عليهم ، ونفى للعذر ، والمخصوص بالذم هنا محذوف ، والتقدير : فساء صباح المنذرين صباحهم ، وفى تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وفى تأخير المسند إليه وحذفه تهويل له ، كأن العذاب لما باغتهم انتفى صباحهم أصلا . والظاهر أن **المراد من سوق الذم زيادة تهديد المشركين ومن على شاكلتهم من الغالين اللاهين** . وفيه مع ذلك تطمين للمؤمنين بنصر الله ـ تعالى ـ لهم ، وتأييدهم وغلبتهم أعداءهم .

---

(١) البيضاوى وزاده عليه ٤/ ١٧٠ ، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) البيضاوى وزادة عليه ٤/ ١٧٠ ، إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٠٥ ، نظم الدرر ٦/ ٣٥٣، روح المعانى ٢٣/ ١٥٧ ، التحرير والتنوير ٢٣/ ١٩٧ ، ١٩٨ .

أسلوب الذم فى سياق الحديث عن عقاب الآخرة

هذا السياق هو أكثر السياقات التى ورد فيها أسلوب الذم فى الذكر الحكيم وقد ورد أسلوب الذم فى ثمانية وعشرين موضعا ، ثلاثة وعشرون موضعا كانت لـ (بئس) ، وخمسة مواضع كانت لـ (ساء) ، وكلها وقعت عقب الحديث عن ذكر جهنم ، أو النار ، وتنوع هذا العقاب بتنوع أصحابه ، فتارة يكون للمشركين وتارة يكون للمنافقين ، وأخرى يكون لليهود ، أو لتحذير المؤمنين من ارتكاب بعض المعاصى .

وقع ذم جهنم بأنها بئس المصير فى أحد عشر موضعا بـ (بئس) ، عشرة منها اقترنت بالواو منها موضع واحد اقترن بلام القسم ، ووقع موضع آخر مقترناً بالفاء ، ووقع ذمها بأنها ساءت مصيرا فى ثلاثة مواضع اقترنت بالواو فيها كلها .

ووقع ذم جهنم بأنها ﴿بئس المهاد﴾ فى أربعة مواضع ثلاثة منها اقترنت بالواو فيها موضع واحد اقترن بلام القسم ، وموضع آخر اقترن بالفاء .

ووقع ذم جهنم بأنها ﴿ بئس مثوى المتكبرين﴾ فى ثلاثة مواضع اقترنت كلها بالفاء واقترن موضع منها بلام القسم بعد الفاء .

ووقع ذم جهنم بأنها ﴿ بئس مثوى الظالمين﴾ فى موضع واحد ، كما وقع ذمها بأنها ﴿ بئس الورد المورود ﴾ فى موضع واحد ، وبأنها ﴿ بئس الرفد المرفود﴾ فى موضع واحد وبأنها ﴿ ساءت مرتفقا فى موضع واحد ﴾ وبأنها ﴿ساءت مستقر ومقاما ﴾ فى موضع واحد وبأنها ﴿ بئس القرار ﴾ فى موضع اقترن أحدهما بالواو والآخر بالفاء .

وقد عرضت هذا الاستقراء التام حتى تظهر مشقة على اختصاص كل سياق بما ورد فيها ، ومحاولة التعليل البلاغى للفارقات الدقيقة بين هذه الأساليب ، فإن وقفنا الله على شئ منها فذاك عطاء لا يوازن ولا يقادر قدره وإلا فمن عجزى وتقصيرى .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ (البقرة/ ١٢٦) .

يمكن إجمال عدة أمور ذكرها العلماء فى هذا الأسلوب ـوبئس المصير) أو ما يقاربه تغنى عن ذكرها مرة أخرى :

أولا : تأولوا الواو المقترنة بهذا الأسلوب بأنها واو الاعتراض أو الحال ، وإذا كانت المعطوفة قالوا بتقدير محذوف ليتسق العطف .

ثانيا : أنهم ذكروا أن هذا الأسلوب تذييل ، أو اعتراض تذييلى .

ثالثا : أنهم ذكروا أن المخصوص بالذم محذوف فى كل هذه المواضع .

رابعا : أن المصير إما أن يكون اسم مكان وإما أن يكون مصدراً ، وعلى الأخير يكون المعنى وبئست الصيرورة صيرورته إلى العذاب .

خامسا : انهم فرقوا بين المصير والمرجع ، بأن المصير يقتضى مخالفة ما صار إليه من جهنم لما كان عليه فى الدنيا لأن الصيرورة تقتضى الانتقال من حال إلى حال أخرى كصار الطين خزفا ، والمرجع انقلاب الشئ إلى حال قد

كان عليها ، كقولك : مرجع ابن آدم إلى التراب [1]، والمآل إذا ما كان مجهولا ومرعبا كان ألصق بمقام الزجر والتهديد ، وكون هذا الأسلوب واقعا موقع التذييل ، يدل على أنه جاء لتأكيد معنى سبقه ، وهذا ما يجعل لكل موضع لهذا الأسلوب فائدة بلاغية تتناسب والسياق الذى سبقه ، وهذا يعنى أن القرآن لا يسعى بتراكيبه إلى الذم أو المدح من أجل الذم أو المدح ، وإنما من أجل هدف ومقصد يؤكده أسلوب المدح أو الذم ، وإلا ما كرر (وبئس المصير) عدة مرات كما هو واضح هنا .

المهم أن ما ذكره الأئمة وجمعته فى هذا الموضع يستغنى بذكره هنا عن ذكره فى المواضع المتقاربة ، ويبقى بعد ذلك محاولة التقاط سر للمقصد من سوق أسلوب الذم فى كل موضع .

جاء أسلوب الذم فى الآية الكريمة فى سياق حكاية دعاء سيدنا - إبراهيم عليه السلام - ربه ، أن يجعل البلد آمنا ، وأن يرزق أهله من الثمرات ، والظاهر أن الكلام بعد ذلك لله ، لا من تمام دعاء سيدنا إبراهيم ، على الظاهر (قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار﴾ وهو من أشد الوعيد ، وألذع التهديد ، إذ هو تحذير للكافرين ، **ثم جاء أسلوب الذم على سبيل التذييل (وبئس المصير﴾ زيادة فى التهديد ، وتأكيدا للتحذير** والتعبير بالمصير هنا متناسب مع سياق التهديد ، كما يلائمه أيضا حذف المخصوص ، وقد قدروه ضميرا ، أو العذاب ، وقد ترك القرآن العظيم ذكر

---

(١) ما ذكرته مستخلص مما كتبه الأئمة فى مواطن متعددة انظر أنوار التنزيل ٢/ ٣٤٣ ، نظم الدرر ٨/ ٧٠ ، ٧١ ، إرشاد العقل السليم ١/ ١٥٩ ، ٢/ ١٠٦ ، ٤/ ٨٣ ، ٦/ ١٩٣ زادة على البيضاوى ٣/ ٤٣٧ ، روح المعانى ١/ ٣٨٣ ، ٤/ ١١٢ ، ٥/ ١٢٦، ١٠/ ١٣٨ ، ١٧/ ٢٠٠ ، ١٨/ ٢٠٩ ، ٢٧/ ١٧٩ ، التحرير والتنوير ١/ ٧١٧ ، ١٠/ ٢٦٧ ، ٢٧/ ٣٨٩ ، ٢٨/ ٢٧٨ ، ٢٩/ ٢٣ .

المخصوص زيادة فى التهويل ، وإمعانا فى التحذير ، فالمصير مجهول مخيف والمخصوص بالذم محذوف من بعد تأخيره ، وتقديم المسند تعجيلا بمساءتهم .

قال تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (آل عمران / ١٦٢) .

الآية الكريمة وردت فى سياق الحديث عن الجهاد فى سبيل الله ، وقد أرجف المنافقون وجدوا فى تثبيط المؤمنين عن الخروج ، تأمل : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾)آل عمران/ ١٥٦) وقد تحرر السياق تحررا كاشفا عن المآل الحسن للمؤمنين المتبعين أمر الله ، لعلمهم أن فيه رضوانه .

ثم جاءت الآية الكريمة ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ﴾ والكلام مبنى على الإيجاز وتقدير المعنى أفمن اتبع رضوان الله فرضى عنه كمن باء بسخط الله فغضب عليه ، وإنما أكد على جانب المغضوب عليه ، بعدة أشياء المحذوف ، والإخبار بما له والتأكيد عليه ، لأن المؤمن حسبه من ربه الرضا ، فإذا رضى عنه الله نال كل خير ، وخلاصة القول أن الأمر مبنى هنا على انتفاء التساوى بين الصنفين ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه فى التأكيد على دحر المغضوب عليه (كمن باء بسخط من الله) وقيد (من الله) يزيد فى التهديد ، (ومأواه جهنم) تعبير فيه من التهديد ما يخلع القلب ، فإن الإنسان إذا كان فى السجن فأمله فى الخروج يخفف آلامه ، فماذا إذا صارت له جهنم مأوى مخلداً فيه ، فقد ذكر السبب أولا وهو إغضابه ربه، ثم ذكر الجزاء ، ثم أكد على هول هذا الجزاء ، **فوقع أسلوب الذم تأكيداً لانتفاء تساوى المغضوب عليهم ، بالمرضى عنهم** ، وفيه من زيادة التهديد

ما فيه . والكلام فى التقديم وحذف المخصوص والتعبير بالمصير سبق الحديث عنه ، ويرشح لما استنبطت فى ذكر المقصد أن الآية التى تلت أسلوب الذم هى قوله تعالى : ﴿ هم درجات عند الله . . .﴾ وكأنها تأكيد لانتفاء التساوى .

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ (الأنفال / ١٥ ، ١٦) .

معلوم أن سورة الأنفال بنيت على غزوة بدر ، وقد جاء أسلوب الذم فى سياق النهى عن التولى عند الزحف ، وقد جاء الأسلوب مصعدا بيانه فى الكشف عن عقوبة من يولى دبره عند الزحف (فقد باء بغضب من الله) (ومأواه جهنم) (وبئس المصير) كما تبصر جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد الذكر الحكيم بيانه فى التحذير من التولى عند الزحف ، وموقع التذييل ينبئ بذلك ، وكأن فى هذا التركيب إشارة إلى أن التولى عند الزحف أجمع المعاصى للمذام، لما فيه من إعطاء الدنية فى الدين والعرض والوطن . ويمكن القول بأن المقصود من أسلوب الذم زيادة التحذير من التولى عند الزحف . فإن الغرض من أسلوب الذم إنما يستنبط من السياق لموقعه الذي ذكرته سلفا .

والكلام فى تقديم المسند وتأخير المسند إليه وحذف المخصوص قد مضى.

قال تعالى : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ (التوبة/ ٧٣ ، التحريم/ ٩) .

الآيتان الكريمتان وردتا فى هذين الموضعين من الذكر الحكيم ، وهما كما ترى فى الأمر بجهاد المنافقين والإغلاظ عليهم ، ومعلوم أن سورة التوبة

فضحت المنافقين لذا يسميها أهل العلم بالفاضحة والمشقشقة والعاثرة ، والحافرة وأسماء أخرى كثيرة ، وسورتا التوبة والتحريم مدنيتان ، ومجئ الآية الكريمة فى سورة التوبة لا إشكال فى التقاط مناسبته ، أما مجيئها فى التحريم فيبدو أن الذى طلبها الحديث عن اتباع المؤمنين نور الله ، وأنهم كما اتبعوه فى الدنيا فأضاء لهم ، فسيضئ لهم يوم القيامة ، (يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ ، فذكر المنافقين بعد ذلك جمعا بين الضدين ، إذ المنافقون عرفوا نور الله ، لكنهم لم يتبعوه الظاهر أن هذه هى المناسبة فيما أبصر .

ويبدو أن المراد من سوق أسلوب الذم فى الموضعين **زيادة التأكيد على الأمر بجهاد المنافقين والكفار ، أو زيادة تأكيد خسرانهم فى الدارين .** تأمل (جاهد واغلظ) لأنهم خاسرون مطبوع على قلوبهم ، وذكر مألهم فى الآخرة مما يدفع إلى شدة مجاهدتهم ويؤكد عليها ، إذ هو إخبار له - ﷺ - بأنهم مصرون على الكفر والنفاق .

وقد ذكر ابن عاشور فى آية التوبة أن الجمع بين (المأوى والمصير) ليس وراءه إلا التفنن [1]ولا أره لأن الكلام بنى على التصعيد ، كما ينبئ به موقع أسلوب الذم ، وفى الدلالة اللغوية فرق كما ترى ، فهناك فرق بين المأوى والمصير وفى حذف المخصوص تهويل وتخويف يتناسب وسوق أسلوب الذم .

قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ (الحج/ ٧٢) .

السياق هنا فى إغاظة الكافرين ، فإذا ما كانت آيات الله حين تتلى

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٢٦٧ .

عليهم تغيظهم ـ والغيظ عذاب ـ فأمعن فى إغاظتهم ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم﴾ وحاشا أن يكون كلام الله وآياته شرا ، ولكن الخطاب هنا للكافرين فآيات الله عليهم شر مستطير ، ثم ذكر أنه (وعدها الله الذين كفروا) ثم جاء **أسلوب الذم زيادة فى إغاظتهم ، وزيادة فى تهديدهم ، وهما مقصدان متعانقان** لا متعاندان ويمكن الجمع بينهما بقولنا : زد فى إغاظتهم بزيادة تهديدهم .

قال تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾ (الحديد / ١٣ : ١٥) .

جاء الحديث عن المنافقين مقابلا للحديث عن المؤمنين ، كاشفا عن خيبة المنافقين وبوار سعيهم ، وقد جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه فى الكشف عن خيبتهم ، تنفيرا من النفاق ، وتهديداً للمنافقين ، ولما طال الحديث عنه فى الكشف عن خيبة مآلهم زاد التصعيد ، فقد شاهدوا نور المؤمنين فى الآخرة وحرموا الانتفاع به ، ثم ضاعف القرآن من حسرتهم ، فضرب عليهم سورا ، والحرمان من الشئ بعد إبصاره أشد على النفس من حرمانها منه دون رؤيته ، وناهيك بالحال يوم القيامة ؛ تذكيرا لهم بمعرفتهم الإسلام والإعراض عنه فى الدنيا ، ثم بكتهم المؤمنون حين ذكروهم بمعيتهم ، ثم تأمل هذا التحسير (فاليوم) وما أدراك ما اليوم ؟ لا يؤخذ منكم فدية ، هذه عقوبة ، ثم قرنهم بالذين كفروا (ولا من الذين كفروا) وهذه عقوبة أخرى بعد

العقوبات السابقة ، (مأواكم النار) عقوبة أعلى ، (هى مولاكم) عقوبة أعلى ، وفيها تهكم كما ترى ، ولم يرد هذا التعبير فى المواضع الأخرى ، ثم جاء التذييل (وبئس المصير) مؤكدا على كل ما مضى ، **زيادة فى إظهار خيبتهم فى الآخرة ، تهييجا لهم لترك النفاق ، وتأكيدا على رضا الله على المؤمنين**، هذا المقصد من أسلوب الذم فيما أرى .

وقد كان ما اختص به هذا الموضع (هى مولاكم) مثيرا انتباه الشيخ البقاعى ، فهداه هذا الاختصاص إلى إبصار محذوف يزيد من ترهيب المقصد حيث قال : ﴿ ولما كان التقدير : فبئس المولى هى عطف عليه قوله : وبئس المصير [1]﴾ .

وقد ترك الذكر الحكيم المخصوص قصدا إلى تهويله فوق التهويل المذكور. وقد أبصرت تصعيد القرآن بيانه ، وكيف تراكبت وتواكبت أنماط التهديد حتى ختمت بأسلوبى ذم على كلام البقاعى ـ وهو ملحظ لطيف ، وفى الأسلوب الأول تهكم كما تعلم ، إذ المنتظر من المولى النصرة ، وهل لجهنم من نصرة للمنافقين ؟!

قال تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ (التغابن/ ١٠) .

جاءت الآيات الكريمات ردا على زعم الكافرين بأنهم لن يبعثوا ، يقصدون من إنكار البعث إنكار الحساب ، فرد الذكر الحكيم عليهم ردا بليغا

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٤٧ .

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ (التغابن/٧) فرد عليهم بأسلوب مؤكد بليغ يتناسب وإنكارهم، ثم انتقل الحديث بعد ذلك إلى يوم الجمع ، ولم يذكر يوم الجمع إلا هنا وفى سورة الشورى (الآية/٧) وفى سياق إنذار المشركين ، وفرع على ذكر يوم الجمع تصنيف الناس فى الحساب ، فذكر المؤمنين أولا ، وذكر أنه يدخل المؤمن الصالح ﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ فظهر أثر السياق فى إضافة قيد اختص به سياق أسلوب الذم فى هذه السورة الكريمة دون بقية المواضع الأربعة عشرة وهو «خالدين فيها﴾ بعد الكشف عن أنهم أصحاب النار ، وأستطيع القول بعد كشف السياق السريع **أن المقصد من سوق أسلوب الذم : هو زيادة التأكيد على البعث والحساب ، علاوة على زيادة تهديد المنكرين للبعث .**

وقد ذكر ابن عاشور أن جملة ﴿وبئس المصير﴾ اعتراض تذييلى لزيادة تهويل الوعيد [(١)]، ولا يتعاند معه ما ذكرته ، وإنما يتضامان ، وسأسوق هنا كلاما للشيخ البقاعى فى الكشف عن تصعيد القرآن بيانه ، وما فى ذلك من التهديد والوعيد حيث أبصر هذه التراكيب ﴿ أولئك أصحاب النار - خالدين فيها - وبئس المصير ﴾ فنظر الى الصحبة ، ثم الخلود ، ثم ذم مكان هذا الخلود وتلك الصحبة فقال : ﴿ ولما كان السجن إذا رجى الخلاص منه ، قلل من خوف داخله ، وكان التعبير بالصحبة مشعرا بالدوام المقطع للقلوب ، لأنه مؤيس من الخلاص أكده بقوله : ﴿خالدين فيها﴾ وزاد فى الإرهاب منها بقوله: - مشيرا إلى مضار القلب بعد ذكر مضار القالب - وبئس المصير ، أى جمعت المذام كلها للصيرورة إليها ، فكيف بكونها على وجه الإقامة زمنا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧٨/٢٨ .

طويلا ، فكيف إذا كان على وجه الخلود [1]﴾ .

وهذا التصعيد من خصائص السورة الكريمة فى سياق أسلوب الذم ، تناسبا مع ما سبق من الزعم المؤكد من المشركين على إنكار البعث ، وخلاصة قول الشيخ البقاعى أن المراد من سوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من جهنم ، والذى أبصره أن هذا مقصد فى كل أسلوب ذم فيها ، ويبقى لكل أسلوب مقصد خاص بسياقه كما حاولت .

قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ (الملك / ٤ ، ٥) .

أرأيت كيف قرن الذكر الحكيم الكافرين بالشياطين فيما أعد لهم من العذاب المقيم إذ كفروا بربهم ، الذى بيده الملك ، وظاهر أن التقديم فى وللذين كفروا ...﴾ للتخصيص ، فهو عذاب مختص بهم ، وفى الاختصاص مزيد اهتمام بتعذيبهم ، ثم ترى هنا شيئاً خاصا بتركيب سياق أسلوب الذم (عذاب جهنم) هذه الإضافة ليست موجودة فى المواطن الأخرى ، نعم جهنم لا تكون إلا عذابا ، ولكن فى إضافة العذاب إليها ، زيادة تهديد للكافرين ، ثم جاء أسلوب **الذم مؤكدا زيادة التهديد** ، إذ المصير دال على عدم خلاصهم منها أصلا أزلا وأبدا كما قال البقاعى [2]. وسبق الحديث فى المخصوص المحذوف ، وتقديم المسند .

قال تعالى : ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار

---

(١) نظم الدرر ٨/ ١٤ ، ١٥ .

(٢) نظم الدرر ٨/ ٧٠ ، ٧١ .

ولبئس المصير﴾ (النور / ٥٧) .

هذا هو الموضع الوحيد فى المواضع الأربعة عشر الذى جاء مقترنا بلام جواب القسم المقدر ، وذلك لتلاؤمه مع السياق ، الذى يتحدث عن وعد الله المؤمنين باستخلافهم فى الأرض ، والتمكين لدينهم ، وتبديله خوفهم أمنا ، ولما كانت كثرة المشركين وقوتهم ، وإحاطتهم بالمؤمنين من كل جانب مثيرة بعض الشك وردت الأساليب كلها مؤكدة بالأقسام المحذوفة (ليستخلفنهم - ليمكنن - ليبدلنهم) ثم جاء توكيد آخر بالفحوى (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) فقد نفى بذلك فوتهم هربا ؛ لذا قالوا : ﴿ وفى إيراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم إثر نفى فوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه ، فلله در شأن التنزيل [1]﴾ .

المهم أن اقتران أسلوب الذم هنا بلام جواب القسم المقدر جاء متلائما مع التراكيب فى هذا السياق ، من أجل ذلك كان هذا الاقتران من خصائص تركيب أسلوب الذم وسياقه هنا ، وكذلك التعبير بالمأوى والمصير يتلاءم مع السياق (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) أى مأواهم الغلبة ومصيرهم الذلة هذا فى الدنيا ، وأشد منه فى الآخرة ، ويمكن القول - بعد استكشاف السياق - **أن المقصد من سوق أسلوب الذم هو زيادة التأكيد على بشارة المؤمنين بالاستخلاف والتمكين والتأمين فوق زيادة تهديد الكافرين** بذم مأواهم ومصيرهم فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون إلى ما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم

(١) إرشاد العقل السليم ٦/ ٢٩٣ ، روح المعانى ١٨/ ٢٠٩ .

يحيك به الله يقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ (المجادلة/ ٨) .

الآية الكريمة فى شأن اليهود عند الجمهور ، فحين كانوا يرون المؤمن يتناجون فيما بينهم ؛ إيهاما له بأنهم يتآمرون عليه ، ثم إنهم يحيون الرسول بما لم يحيه الله به ، فيقولون (السام عليكم) وهذه جرأة ، وقباحة متناهية ، يتناسب معها أسلوب الذم ، وفوق جرأتهم على المؤمنين ، ثم على الرسول - ﷺ - ثم على الله كما توضح الآية ﴿ ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أى لاجترأوا أكثر ، ولازدادوا قبحا ، لذا وقع فى تركيب سياق أسلوب الذم (حسبهم جهنم يصلونها) وليس هذا التركيب موجودا فى أى من السياقات الأخرى .

ثم اختص هذا الموضع بالفاء ، وهى فاء تفريع عند ابن عاشور [1]، وهى سببية عند البقاعى [2]ويمكن أن تكون الفاء الفصيحة : والتقدير إن كانت كافيتهم فبئس المصير ، وهذا يفيد زيادة تهكم بهم يتناسب مع سخريتهم من الله ورسوله والمؤمنين ، وإن كانت فاء السببية فكذلك أيضا ، أى أن ذمها وقبحها بل جمعها للمذام متسبب عن كونها كافية اليهود عندما يصلونها ، وفيه يزيدون جهنم قبحا ، وكل ذلك يتناسب وأوصافهم وجرائمهم ، لذا وقعت الفاء هنا ولم تقع فى المواضع الأخرى ، **ولعل المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة تهديد اليهود ، فوق زيادة التنفير من التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول .**

قال تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٣٢ .

(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٩٣ .

قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ (النساء/ ٩٧) ثم قال : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما ﴾ (النساء/ ٩٧ : ١٠٠) .

ذكرت الآيات كما ترى لتبصر موقع أسلوب الذم معى فقد جاء فى سياق الحث على الفرار بدين الله ، فبدأ بالترهيب ، فرهب القاعدين عن الهجرة بسوء المآل (ظالمى أنفسهم) ، ثم صمد بعد ذلك بالكشف عن صور سوء المآل فذكر ما عند الموت من توبيخ الملائكة لهم ، ثم قفز قفزة سريعة لم يذكر فيها القبر إلى المآل فى الحساب فأولئك مأواهم جهنم ﴾ فهو ترهيب متصاعد كما ترى ، ثم زاد فى الترهيب فذكر أسلوب الذم (وساءت) مصيرا ، **فجاء لمقصد زيادة الترهيب من عدم الفرار بدين الله** ، ولأثر الأسلوب فى السياق جاء ما بعده متأثرا به فالمستثنون من المستضعفين الذين لا حيلة لهم ، العفو عنهم ليس مؤكدا ﴿ فأولئك عسى الله . . .) وهذا يساهم أيضا فى زيادة الترهيب ، ثم انتقل بعد هذا الترهيب المتصاعد ، إلى الترغيب المتناجى بقوله: ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يحذف الأرض مراغما . . . ﴾ .

وقد سبق البيان عن أن مصيرا تمييز للفاعل المحذوف وأن المخصوص بالذم محذوف ، مدلول عليه بما مضى ، وكل مزايا التركيب من الحذف والتقديم وأسلوب الذم تلهب من نبرة الترهيب من عدم الهجرة بدين الله عز وعلا ، ولعل فى اصطفاء (ساء) على (بئس) هنا تناسبا مع ما فى السياق مما

يدعو للعجب (ظالمى أنفسهم) وهو قيد يثير العجب ، إذ ما أعجب وما أقبح أن يظلم الإنسان نفسه ، فناسب القيد (ساء) .

قال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ (النساء/ ١١٥) .

كأنى بالآية الكريمة تنادى على قوله تعالى فيما مضى من السياق ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (النساء /٦٩) وهذا كان المقصود من سوق أسلوب المدح فيها زيادة الترغيب فى طاعة الرسول - ﷺ - وهذه ضدها ، والظاهر أن **المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من مشاقة الرسول -** ﷺ - وقد ذكر فى السياق سر قبح المآل (مشاقة الرسول - اتباع غير سبيل المؤمنين) وكأنى بالثانى توكيد للأول ، لأن مشاقة الرسول ما هى إلا اتباع غير سبيل المؤمنين ، فكان عقابه أيضا إمهاله بتزيين الطريق الفاسد له، ثم نصله جهنم وساءت مصيرا ، ولعل فى اصطفاء (ساء) هنا على (بئس) تناسبا مع السياق ، وتلاؤما مع هذا القيد (من بعد ما تبين له الهدى) فما أعجب النكوص عن الحق بعد الاهتداء إليه ، وما أقبحها طريقة ، فناسب هذا القيد (ساء) لأنها تدل على الذم ، وتتضمن التعجب .

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ﴾ (الفتح ٤ :٦) .

السياق كاشف عن نصر الله أولياءه فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالنصر والفتح ، وفى الآخرة بالجنة والنعيم ، وبعد أن ذكر الله أولياءه وحسن عاقبتهم أتبعهم ذكر أعدائه ، وقدم المنافقين زيادة فى تقبيحهم ، فهم عند الله أقبح من المشركين فذكر الحق للجميع عقوبات متصاعدة (عليهم دائرة السوء) أى الهلكة فى الدنيا ، رداً على ظنهم السئ فى قتل محمد وأصحابه وإبادتهم بالكلية ، هذا فى الدنيا ، ثم (وغضب الله عليهم) ثم (ولعنهم) زيادة بغض وشدة بغض، طردوا من رحمة الله ، (وأعد لهم جهنم) **ثم جاء أسلوب الذم ذروة تصعيد القرآن بيانه فى تهديد المنافقين والمشركين وتطمين المؤمنين**، ومعلوم أن سورة الفتح نزلت قبل الفتح .

ولعل اصطفاء (ساء) على (بئس) هنا تلاؤم مع هذا القيد الذى تتفرد به سورة الفتح (الظانين بالله ظن السوء) إذ ما أقبح تفكيرهم أن الرسول وصحبه سيهلكرن بالكلية ، كيف وقد نصرهم من قبل ومن بعد نصراً مؤزا ، فتناسب مصيرهم مع قبح تفكيرهم ، إذ (ساء) تدل على الذم وتتضمن التعجب .

وقد ذكر البقاعى أن جملة الذم عطفت على جملة ذم محذوفة ، والتقدير : (فساءت معدا[1] وساءت مصيرا) وهو وجه قوى متناسب مع ذكر غضب الله ولعنه المنافقين ، إذ حذفه يدل على أنه لا فرق زمنى بين الإعداد والإساءة .

وإلى هنا انتهى الحديث عن الأسلوب (وبئس المصير) وما يقاربه ، وقد أبصرت فيه كيف كان لكل سياق خصوصية ، ولكل أسلوب ـ على تقاربه مع الآخر ـ مهمة بلاغية ليست لصنوه وأخيه ، وقد حاولت استخراج التلاؤم بين الأساليب وسياقاتها .

---

(١) نظم الدرر ٧/١٩١ .

وقع ذم جهنم بهذا الأسلوب (بئس المهاد) أربع مرات ، اقترن ثلاث مرات بالواو ،ومرة واحدة بالفاء ، واقترن موضع واحد بلام جواب القسم ، ويمكن إجمال أمور هنا محل اتفاق بين المفسرين فى هذا الأسلوب ، يستغنى بذكرها هنا عن ذكرها فى بقية المواطن .

أولا : اتفقوا على أن الأسلوب تهكمى (استعارة تهكمية ، وقد رجحت فى دراسة أخرى أنه تشبيه تهكمى ، وذلك أن الطرفين موجودان حين تقدير المخصوص (وبئس المهاد جهنم) .

ثانيا : اتفقوا على أن المخصوص بالذم محذوف .

ثالثا : ذكروا أن الأسلوب ـ ما اقترن منه بالواو ـ اعتراض ، ومقصدهم أنه اعتراض تذييلى ، وهذا منهم دليل على ضرورة استنباطنا الغرض من سوق أسلوب الذم من السياق ، الذى وقع الأسلوب تأكيدا له كما مضى .

رابعا : ذكر بعضهم أن الأسلوب استئناف لإنشاء الذم ، وعليه فالواو استئنافية وعلى السابق الواو واو الاعتراض ، وعلى أى حال الأسلوب على الطريقتين يفيد التوكيد .

خامساً : تفرد ابن عاشور بالقول بأنه من باب عطف الإنشاء على الخبر[1]، وسأتناول بحول الله كل أسلوب محاولا كشف ارتباطه بالسياق ، واستنباط مقصد سيق له .

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد

---

(١) انظر أنوار التنزيل وزاده عليه ١/ ٥١٤ ، ١/ ٦٠٧ ، ٣/ ١١٦ ، ٤/ ١٨٧ ، مفاتيح الغيب ٨/ ١٨٨ ، إرشاد العقل السليم ١/ ٢١٢ ، ٢/ ١٠ ، ١١ ، ٥/ ١٦ ، ٧/ ٢٢٦ روح المعانى ٢/ ٩٦ ، ٣/ ٩٥ ، ١٣/ ١٣٣ ، ٢٣/ ٢١٤ .

الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ (البقرة / ٢٠٤ : ٢٠٦) .

الآيات فى الأخنس بن شريق كما ذكر المفسرون ، والآيات فضحته (وهو ألد الخصام ، وقد جمع بين الإفساد والإهلاك (ليفسد فيها ويهلك) وقد عم فساده وإهلاكه (الحرث والنسل) ثم ذكر القرآن كبره (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) وكلها جرائم بناها النظم القرآنى على تناهيه فيها ، وبلوغه منها الحد الأقصى لذا اختص أسلوب الذم هنا بأمرين ، وقوع الأسلوب جواب قسم (ولبئس . . .) كما ذكر العلماء [1] تأكيد لتناهى عذابه فى الذم أيضا ، والأمر الثانى أن أسلوب الذم سبق بقوله تعالى (فحسبه جهنم) بهذا الأسلوب البليغ ، فمثله لا تكفيه إلا جهنم ، وقد جاء أسلوب الذم على طريقة التناهى فى الذم تناسبا مع ما فى السياق من تناهيه فى القبح ، وقد جاء المهاد فى هذا الموضع أيضا تناسبا مع السياق .

ألا ترى أن قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾ ألا ترى أن هذا التركيب يتظاهر على فضحه فى كونه يظهر خلاف ما يبطن ، وأن فى ذلك سخرية من الله واستهزاء به ، لذا ناسبه بناء الأسلوب على التهكم فى العقاب .

وفى اقتران الأسلوب بلام جواب القسم مزيد تأكيد يتناسب وتناهيه فى القبح ، وفى تقديم المسند تعجيل بالمساءة ، وهو الألصق بالسياق ، وفى حذف المسند إليه بعد تأخيره إلماع إلى تهويله ، وإنما جاء التهويل من أنه مهاد جامع لكل المذام ، والأصل فى المهاد أن يكون للراحة ، فكأنه لا مهاد أصلا إلا

---

(١) إرشاد العقل السليم ١/ ٢١٢ ، روح المعانى ٢/ ٩٦ .

العذاب **ولعل المقصد من سوق أسلوب الذم على هذا النحو تأكيد زيادة التهديد للمنافقين** بالكشف عن سوء مآلهم . والأسلوب كله مبنى على التوكيد حتى فى موقعه تلاؤما مع تعديد قبائح هذا المنافق .

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ (آل عمران / ١٠ : ١٢) .

الآية الأولى تهديد للكافرين ، والتى بعدها (كدأب . . .) زيادة فى التهديد ، لأن ذكر ما وقع فى الدنيا دليل على وقوع أشد منه فى الآخرة ، فهى كأنها تأكيد للشئ بذكر الدليل عليه ، ثم جاء أسلوب الذم ناظرا إلى الآية الأولى فى بنائه على المبالغة (أولئك هم وقود النار) ، ثم جاء بعد الآيه موضع أسلوب الذم آية أخرى تؤكد على قدرة الله على تعذيب الكافرين ، دون تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، كأن هذه الآيات كلها وقعت توكيدا للآية الأولى .

وقد ذكروا هنا أن أسلوب الذم إما يكون من تمام ما يقال ، أى ويقال لهم بئس المهاد ، أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها [1]، ويمكن تأسيسا على أقوال أهلم العلم القول **بأن المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة تفظيع حال الكافرين فى جهنم** ، وفى ذلك زجر لهم وتخويف .

وهو مقصد وارد على الاستئناف أو التمام ، وهو ليس ببعيد من السياق كما ترى ، لأن السياق مبنى على إهانة الكافرين فى الدنيا والآخرة بذكر تشبيه

---

(١) روح المعانى ٣/ ٩٥ .

دأبهم بدأب قوم فرعون ، وبذكر هزيمتهم فى غزوة بدر على قلة عدد المؤمنين وكثرة عددهم ، ولم يحتج هنا إلى ذكر اللام الواقعة فى جواب القسم ، لأنه لم يسبق ما يدعوا إليها ، واكتفاء بسوق الدليل على وقوع تعذيبهم (ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) ، وفى مجئ الأسلوب على التهكم تناسب مع ما يعتزون به من المال والولد ظنا منهم أن شيئا مما ذكروه ، يمكن أن يدفع عنهم من عذاب الله شيئا ، وتفكيرهم السفيه هذا فيه غفلة تدعو إلى التهكم بهم . وفى حذف المخصوص تهويل له ، جاء من الإلماع إلى تعينه كأنه أصبح من المشتهر المغنى عن النص أن جهنم هى مهادهم . مع ما فى الأسلوب من المقاصد العامة المذكورة فى التمهيد .

قال تعالى : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (الرعد/١٨) .

جاء أسلوب الذم تعقيبا على جزاء الكافرين فى مقابل جزاء المحسنين ، وقد ورد فى السياق أن المحسنين لهم عقبى الدار ، ومدح عقباهم فقال : ﴿فنعم عقبى الدار﴾ وقد سبق أسلوب الذم بما يكشف عن عجز الآلهة (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ . . .﴾ وفى بناء الأسلوب فى الآية الكريمة تهكم بهم ، إذ قال مستثنيا ﴿ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه . . .﴾ لذا جاء أسلوب ذم عاقبتهم متهكما بهم على طريقة السياق فى التهكم بهم ، واختص أسلوب الذم هنا بأن سبق بقوله: ﴿ومأواهم جهنم ﴾ ؛ لذا قال البقاعى : « ولما كان المأوى إنما يأوى إليه صاحبه للراحة فيه بالاتكاء ، على فرش ونحوه قال معبرا بمجمع المذام ﴿وبئس المهاد[1]﴾ .

---

(١) نظم الدرر ٤/ ١٤٤ .

ومعنى هذا أنه تهكم على تهكم ، **ولعل المقصود من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تهديد الكافرين ، وتخويفهم** ، والمخصوص بالذم حذف إلماعا إلى تعينه والشئ إذا وصل إلى حد اشتهار تعينه بأحد بحيث يغنى ذلك عن ذكره ، كان أشد تهديداً وألصق بالزجر .

قال تعالى : ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد . هذا وإن للطاغين لشر مآب - جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴾ (ص/ ٥٢ : ٥٦) .

أنت ترى التهديد هنا متصاعداً . مقابل الترغيب المتصاعد أيضا ، والأسلوب ملئ بالتوكيد ﴿إن للطاغين لشر مآب﴾ (جهنم يصلونها) وقد اختص هذا الموضع باقترانه بالفاء وبسبقه بقوله ﴿جهنم يصلونها﴾ ﴿وإن للطاغين لشر مآب﴾ فاقتضى هذا التوكيد الإتيان بما هو متناه فى الذم ، تصويرا لما هو متناه فى الشر وقد ذكروا أن الفاء لترتيب الأخبار وتسببه على ما قبله [1]، وهذا يعنى أن الفاء للسببية ، وأن دخولهم جهنم جعلها أجمع للمذام ، وهذا تنبيه على شدة قبح أهلها ، واقتران الأسلوب بالفاء على هذا النحو لا نظير له فى الأساليب السابقة على هذا الأسلوب ، والمخصوص بالذم محذوف إلماعا إلى تعينه وهذا ألصق بمقام التهديد والوعيد ، **والمقصد من سوق أسلوب الذم زيادة التهديد والوعيد** ، وفى الأسلوب تهكم بهم ؛ إمعانا فى تهديدهم ووعيدهم .

ورد ذم جهنم بهذا الأسلوب (بئس القرار) مرتين فى الذكر الحكيم مرة بالواو وأخرى بالفاء قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٨٥ .

وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ (إبراهيم/٢٩) .

السياق هنا فى أئمة الكفر ، وكيف أهلكوا قومهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فقد أحلوهم دار البوار ، وأما فى الآخرة فقد أحلوهم جهنم ، فالأسلوب متصاعد ، وأسلوب الذم هو الذروة ، وقد وقع بالواو ، ولابن عاشور فيها تأويلان أنها واو الحال ، أو أنها من عطف الإنشاء على الخبر [١]، وليس الأخير بمرتضى إلا بتقدير محذوف ، بتقدير ويقال لهم فيها بئس القرار، أو تكون الواو للاستئناف .

والمخصوص بالذم محذوف [٢]. وقد جاء الأسلوب مضيفا **زيادة دلالة على استمرار حلولهم فى جهنم** ، وقد جاءت التراكيب على نمط الماضى دفعا للمجاز عنها ، وفيه من التأكيد ما يناسب شدة الوعيد ، وفى حذف المخصوص بعد تأخيره زيادة تهويل بالإلماع إلى تعينه واشتهاره ، وأنه قد جمع كل المذام ، وإذا ما كان المكان جامعا للمذام ، فما أسوأه مقرا وما أسوأ القارين فيه ، ويمكن أن يقال فى أسلوب الذم زيادة تقبيح للكافرين بذم مستقرهم ومآلهم ، وذلك جزاء تبديلهم نعمة الله كفرا .

قال تعالى : ﴿ وآخر من شكله أزواج هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ (ص/ ٥٨ : ٦٠) .

اقترن الأسلوب هنا بالفاء على طريقة سياقه (فبئس المهاد /ص/٥٦) والفاء هناك كالفاء هنا لترتيب الأخبار والتسبيب ، وقد ذكر العلماء أن هذا من

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٥/٤٢٤ ، أنوار التنزيل ٣/ ١٣٥ ، إرشاد العقل السليم ٥/ ٤٥ ، روح المعانى ١٣/ ٢١٩ .

كلام الأتباع فى تخاصمهم ، **وأنهم قصدوا بالذم المذكور تغليظ جناية الرؤساء عليهم**[1] وهذا تصريح من الأئمة بالمقصد من أسلوب الذم ، فليس الذم عندهم غرضا تتظاهر التراكيب عليه ، وقد ذكر ابن عاشور ، أن الأسلوب ذم لإقامتهم فى جهنم تشنيعا عليهم فيما تسببوا لأنفسهم فيه[2] وعلى أى حال فالأسلوب لا يمنع هذا ، وكلاهما مقصد لأسلوب الذم ، والمخصوص بالذم هنا محذوف تهويلا له زيادة فى التغليظ ، وتأكيدا للتشنيع لأن فى حذفه إلماعا إلى تعينه ، فمقرهم أصبح جامعا للمذام ، واشتهاره بذلك أصبح مغنيا عن النص عليه .

ورد ذم جهنم بهذا الأسلوب ﴿ بئس مثوى المتكبرين﴾ ثلاث مرات فى الذكر الحكيم اقترنت كلها بالفاء ، واقترن موضع منها بلام جواب القسم .

قال تعالى : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين . الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون . فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ (النحل / ٢٧ : ٢٩) .

جاء أسلوب الذم هنا مقترنا بلام جواب القسم على طريقة التقابل مع المتقين ﴿ ولنعم دار المتقين﴾ ، والسياق من أول السورة كاشف عن لدد الكافرين فى الخصومة وتكبرهم على الحق ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ (النحل / ٤) وكذلك عبر ربنا أن لهم شركاء كانوا يشاقون فيهم .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٢٧ ، روح المعانى ٢٣/ ٢١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٩٠ .

وقد جاءت جملة الذم بعد أمرين ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾ وهذا الأمر للإهانة والإذلال ، ﴿خالدين فيها﴾ إمعان فى الإهانة ، إذ هى إهانة على وجه الخلود ثم جاءت جملة الذم على سبيل التذييل ، واقترنت باللام للتوكيد ؛ لذا قال الآلوسى « والفاء عاطفة ، واللام جئ بها للتأكيد اعتناء بالذم لما أن القوم ضالون مضلون كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم ...﴾ وللتأكيد اعتناء بالمدح جئ باللام أيضا فيما بعد من قوله سبحانه ﴿ ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ » أى أى أن التوكيد بلام جواب القسم ناسب ما قبله ولاءم ما بعده ، ثم قفز الآلوسى قفزة علل فيها عدم مجئ اللام فى الموضعين الآخرين بأن ذلك راجع للسياق حيث قال بعد النص السابق «وكأنه لعدم هذا المقتضى فى آيتى الزمر والمؤمن لم يؤت باللام [1]» .

وقد لحظ ابن عاشور اصطفاء التعبير بـ (مثوى) على التعبير بـ (دار) كما جاء فى مقابله فقال : ﴿ ولم يعبر عن جهنم بالدار كما عبر عن الجنة فيما يأتى بقوله تعالى : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ تحقيرا لهم ، وأنهم ليسوا فى جهنم بمنزلة أهل الدار ، بل هم متراصون فى النار ، وهم فى مثوى أى فى محل ثواء [2]» .

وفى إضافة الفاعل (مثوى) إلى المتكبرين تسجيل عليهم سبب تعذيبهم ، لذا قالوا : ﴿ وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوائهم فيها [3]﴾ ، وقد نفذ البقاعى أيضا إلى تفسير فروق التراكيب من السياق فقال : ﴿ ولما كان هذا المقام للمشاققة ، وكان أمرها زائد القباحة ، كان هذا الدخول أقبح دخول ،

---

(١) روح المعانى ١٤/ ١٣٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٤٠ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/١٠٩ .

وكان سببا لأن يقال : ﴿فلبئس﴾ بالأداة الجامعة لمجامع الذم (مثوى المتكبرين) على وجه التأكيد ، وبيان الوصف الذى استحقوا به ذلك ، لتقدم كذبهم فى قولهم (ما كنا نعمل من سوء) تعريفا بأنهم جديرون ـ لغاية ما لهم من البلادة ـ أن يستحسنوا النار ، كما كذبوا مع العلم التام بأنه لا يروج فى ذلك اليوم كذب [1]﴾ والمخصوص بالذم محذوف تهويلا له ، ويمكن من كل ما مضى أن يقال المقصد من سوق أسلوب **الذم زيادة التهديد والوعيد** ، على طريقة مقابله فى زيادة الترغيب فى التقوى .

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (الزمر/ ٧١، ٧٢) .

جاء أسلوب الذم مقترنا بالفاء على طريقة مقابله ﴿فنعم أجر العاملين﴾ ولم يقترن هنا بلام القسم مثل سورة النحل ، لأنه هنا حديث لهم بعد دخولهم النار ، مقابل حديث المؤمنين بعد دخولهم الجنة ، **والمقصد من إيراد أسلوب الذم هنا زيادة إهانتهم** جريا على لاحب السياق الملئ بالتوبيخ ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم . . .﴾ ومن قبل لم يوجد حرف العطف (حتى إذا جاءوها فتحت) بدون الواو ؛ إظهاراً لتمام الاستعداد لإهانتهم وتعذيبهم ، وفى التعبير بالمتكبرين إشعار بعلية عذابهم ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ما قبله ، للتهويل الآتى من الإشعار بتعينه .

ويمكن أن يقصد أيضا بسوق أسلوب الذم زيادة الترهيب من التكبر على

١) نظم الدرر ٤/ ٢٦٣ .

آيات الله .

قال تعالى : ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (غافر/ ٧٥،٧٦) .

أسلوب الذم جاء هنا أيضا إمعانا فى إهانة الكافرين ، وهو قد وقع فى سياق قول الله ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ وفيه من الإذلال والإهابة ما ترى ، وقد تكلم العلماء هنا عن تناسب عجز الآية مع صدرها ، حيث كان المنتظر أن يكون التعبير فبئس مدخل المتكبرين - تناسبا مع الأمر (ادخلوا) فأجابوا عن ذلك بقولهم : ﴿ والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود [1]﴾أى أن هذا القيد (خالدين فيها) له أثر ظاهر فى اصطفاء الأسلوب .

وقد كشف البقاعى عن هذا التناسب بل تناسب الأسلوب مع ما سبق بقوله : ﴿ولما كانت نهاية فى البشاعة والخزى والسوء وكان دخولهم فيها مقرونا بخلودهم سببا لنحو أن يقال فهى مثواكم ، تسبب عنه قوله (فبئس مثوى) دون أن يقال : (مدخل المتكبرين) أى موضع إقامتهم المحكومة بلزومهم إياه لكونهم تعاطوا ما ليس لهم ، ولا ينبغى أن يكون إلا الله . . . ولم يؤكد جملة (بئس) هنا ، لأن مقاولتهم هذه بنيت على تجدد علمهم فى الآخرة بأحوال النار ، وأحوال ما سببها ، والتأكيد يكون للمنكر ومن فى عداه وحال كل منهما مناف للعلم ، وزاد ذلك حسنا أن أصل الكلام مع الأعلم للسر الذى تقدم فبعدا جدا من التأكيد [2]﴾ .

(١) إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٧٩ ، التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٠٧ .
(٢) نظم الدرر ٦/ ٥٣٩ .

ويمكن أن **يكون المقصد من سوق أسلوب الذم زيادة إظهار إهانتهم**، إذ قد جاء الأسلوب نهاية الحديث عن عاقبة الكافرين . وفى إظهار إهانتهم زجر لهم وترهيب من الكفر ، والمخصوص بالذم محذوف سبق الحديث عنه .

قال تعالى : ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ (آل عمران/ ١٥١).

هذا هو الموضع الوحيد فى الذكر الحكيم الذى ورد فيه فاعل (بئس) مثوى مضافا إلى الظالمين ، والمراد بالظالمين هنا الكافرون ، غير أنه ذكرهم بعنوان الظلم ، دلالة على ظلمهم البين ، المذكور بهذا القيد (بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) وهو أشد الظلم ، وكان التعبير للضمير (وبئس مثواهم) غير أنه وضع الظاهر موضع الضمير « للتغليظ والتعليل ، والإشعار بأنهم فى إشراكهم ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه [1]» ، أو أنه وضع الظاهر موضع الضمير «للتعميم وتعليق الحكم بالوصف [2]» ..

والتغليظ والتعميم ليسا بعيدين من نمط التركيب ألا تراه أخبر بأن النار مثواهم ، بعد ما أخبر أنها مأواهم ، وهو ترتيب متصاعد ، لأن التعبير بالمثوى يؤذن بالخلود ، ولا كذلك المأوى ، لأن الإقامة مأخوذة فى المثوى دون المأوى كما ذكروا [3]، والواو يمكن أن تكون واو الاعتراض أو مستأنفة لتأكيد المعنى السابق ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : مثواهم ، وفى حذفه تهويل له، **ويمكن أن تكون المقصد من سوق أسلوب الذم فى هذا الموضع زيادة**

(١) إرشاد العقل السليم ٢/ ٩٧ ، روح المعانى ٤/ ٨٨ .
(٢) نظم الدرر ٢/ ١٦٦ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٢/ ٩٧ ، روح المعانى ٤/ ٨٨ .

تثبيت المؤمنين بالكشف عن ضعف الكافرين فى الدنيا (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وفى الآخرة (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) لأن موقع الآية يرشد إلى هذا ألا تراه قال قبل الآية الكريمة ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ (آل عمران / ١٤٩ ، ١٥٠) وقال بعد الآية محل الشاهد ﴿ ولقد صدقكم الله وعده . . .﴾ (آل عمران / ١٥٢) .

قال تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ (الكهف / ٢٩) .

هذا هو الموضع الوحيد الذى جاءت فيه (بئس) و (ساء) فى سياق واحد، ومن لطف التناسب ، أنه جاء فى مقابل الحديث عن ثواب المؤمنين ، وهو الموضع الوحيد أيضا الذى جاءت فيه (نعم) و (حسن) فى سياق واحد ، وهذان الموضعان من اختصاص سورة الكهف .

والآية الكريمة تتظاهر على التغليظ فى عذاب الكافرين ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ ثم جاء بعد ذلك الأسلوب التهكمى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ وهو مؤسس على المعنى السابق ، إذ الاستغاثة مسببة عن إحاطة النار بهم ، واستغاثتهم حقيقة ، وإغاثتهم مجاز تهكمى ، ثم انظر الإمعان فى تغليظ العذاب عليهم (بماء كالمهل يشوى الوجوه) هذه حرارته وعذابه ما إن يقترب من الوجه إلا ويشويه شيا ، فماذا إذا داخل الجوف ، ثم جاء أسلوب الذم بعد ذلك مختصا بالماء ، فماء بهذه الأوصاف جامع لكل المذام ، فتناسب أن يأتى هنا بـ (بئس) التى تدل على التناهى فى الذم ، ثم صعد القرآن بيانه بعد ذلك من ذم الجزء (الماء) لشديد الحاجة إليه ـ

إلى ذم الكل (وساءت مرتفقا) ، ومعلوم أن (ساء) تدل على الذم وتتضمن التعجب ، ومكان يحوى مثل هذا الماء ما أشد قباحته لقباحة ساكنيه ، وفى التعبير بالمرتفق تهكم « لأن شأن المرتفق أن يكون مكان استراحة ، فإطلاق ذلك على النار تهكم [(١)] وهذا التهكم يتناسب مع التهكم السابق ﴿ وإن يستغيثوا . . . ﴾ ومرتفقا تمييز ، وفاعل (ساء) مفسر بما بعده والتقدير : وساء المرتفق مرتفعا مرتفقهم ، وهو متناسب مع التغليظ ، وحذف المخصوص أيضا بعد تأخيره يتناسب ومقام التهويل وسياق التفظيع ، ويمكن أن يكون المقصد من سوق أسلوبى الذم هنا زيادة التغليظ والتشنيع لعذاب الكافرين .

قال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان/ ٦٥ ، ٦٦) .

الآيات الكريمات تحكى أوصاف عباد الرحمن ، وهاتان الآيتان تحكيان دعاءهما وقد عللوا لطلبهم من الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم بتعليلين (إن عذابها كان غراما) (إنها ساءت مستقرا ومقاما) وقد وقعت جملة الذم تعليلا ثانيا مؤكدا لتعليلهم الأول ؛ لذا وقعت من دون عطف ، لأنها توكيد معنوى للتعليل الأول ، وقد ذكروا أن فى ترك العاطف إشارة إلى أن كلا منهما مستقل بالعلية [(٢)].

والراجح عند العلماء أن (ساء) هنا جارية مجرى (وبئس[(٣)]) ومستقراً تمييز والفاعل مفسر بما بعده ، والمخصوص بالذم محذوف تهويلا له ؛ تناسبا

---

(١) زاده على البيضاوى ٣/ ٢٥٩ ، التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٩ .

(٢) روح المعانى ١٩/ ٤٥ .

(٣) أنوار التنزيل ٣/ ٤٦١ وزاده عليه ، البحر المحيط ٦/ ٥١٣ ، إرشاد العقل السليم ٦/ ٢٢٩ ، روح المعانى ١٩/ ٤٥ ، التحرير والتنوير ١٩/ ٧١ .

مع ما ذكروه من أن عذابها غرام ، وهذا ما فعل البقاعى يلمح التناسب بين أسلوب الذم والسياق حيث قال : ﴿ولما ثبت لها هذا الوصف أنتج قوله ﴾ (إنها ساءت) أى تناهت هي في كل ما يحصل منه سوء ، وهي فى معنى (بئست) فى جميع المذام[1] ﴾ ومن لطيف المناسبة ، وجميل رحمة الله بأوليائه أن أجابهم الله - عز وعلا - بما طلبوا ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ (الفرقان/ ٧٥، ٧٦).

والظاهر أن المقصود من سوق أسلوب الذم زيادة إظهار الاستجارة بالله من عذاب جهنم .

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد - يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ (هود / ٩٦ : ٩٩)

التركيبان اللذان ورد فيهما أسلوب الذم من خصائص السورة الكريمة ، وقد ذكرا تأسيفا على حال فرعون مع قومه فى الدنيا ، إذ كان متبعا وكان قومه متبعين ؛ لذا كان إمام قومه فى العذاب فى الآخرة ، كما كان إمامهم فى الضلال فى الدنيا .

وقد ذكروا أن الواو للحال والجملة (أسلوب الذم) حالية[2] فى التركيب الأول (وبئس الورد المورود) وقد تناسب العجز مع الصدر (فأوردهم - بئس المورد ...) ولما لم يذكر هذا التركيب - يقدم قومه ... فأوردهم فى أى

---

(١) نظم الدرر ٥/٣٣٦ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٥٧ .

موضع آخر من قصة موسى عليه السلام فى الذكر الحكيم ، لم يرد أسلوب الذم أيضا فى غير هذا الموضع .

وقد اختلف العلماء هنا فى فاعل (بئس) وفى المخصوص بالذم ، فمنهم من رأى أن (الورد) هو الفاعل ، ومنهم من رأى أن الفاعل مضاف محذوف ، والتقدير بئس مكان الورد ، والذين قالوا هذا قدروا المخصوص محذوفا (النار)، وأصل التركيب فى ذلك (وبئس مكان الورد المورود النار) ، وإنما قدروا الفاعل مضافا محذوفا ليحصل التصادق بين فاعل (بئس) والمخصوص .

ومنهم من يجعل الورد فاعل (بئس) ويفسره بالجمع الوارد ، ويجعل (المورود) صفة لهذا الجمع ، والمخصوص بالذم ضميرهم المحذوف ، أى : بئس القوم المورود بهم هم ، فيكون الأسلوب ذما للواردين لا لموضع الورود ، والمورود صفة لفاعل (بئس) ، وقد خالف فى جواز وصف فاعل نعم وبئس ابن السراج والفارسى [1].

وهذا من ثراء التعبير القرآنى ، ولعله أورد الأسلوب كذلك حتى يمكن تأويله على هذين الوجهين ، فيكون الذم للوارد وللمورود فيه ، وكلاهما مذموم.

والأسلوب ملئ بالتهكم ، ففى التعبير عن النار بالورد «استعارة تهكمية حيث شبهت النار فى النفس بالماء على سبيل التهكم ، وجعل إثبات الإيراد لها تخيلا[2] لأن الورد الذى يردونه النار ، والورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، وفى النار تقطع الأكباد .

---

(١) انظر الكشاف ٢/٤٢٦ ، البحر المحيط ٥/٢٥٩ ، إرشاد العقل السليم ٤/٢٣٨ ، روح المعانى ١٢/١٣٤ ، دراسات لأسلوب القرآن القسم الثالث ١٠/٣٤٣ .

(٢) أنوار التنزيل وحاشية الشيخ زاده عليه ٣/٦٤ .

وقد ذكر البقاعى - رحمه الله - المناسبة مجريا الكلام على ذم الوارد فقال: «ولما كان التقدير : فبئس الوارد عطف عليه بيان الفعل والمفعول ، فقال (وبئس الورد المورود) كما كان البحر إذن ورده أقبح ورد ورده إنسان ، لأن الورد يراد لتسكين العطش ، وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك[١]»

ولعل المقصد من سوق أسلوب الذم هنا زيادة تفظيع وتقبيح عقاب فرعون وقومه فى الآخرة .

ثم أتبع أسلوب الذم بأسلوب آخر (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) وقد جاء جملة الذم هنا مستأنفة - كما ذكر ابن عاشور - لإنشاء ذم اللعنة [٢]، وقد ذكروا أن بئس الرفد المرفود ، معناه : بئس العون المعان ، والذين قالوا هذا ردوا القول بأن معنى الرفد العطاء ، على أية حال فالمراد من المعنيين (المعان - العطية) تفسير اللعنة فى قولة تعالى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ، وتسميتها عرنا من باب الاستعارة التهكمية ، وأماكونها معانا ، فلأنها أرفدت فى الآخرة بلعنة أخرى لتكونا هادتين إلى صراط الجحيم[٣].

وقد تأولها البقاعى بالتبع والمتبوع والعون والمعان فى قوله : «التبع المتبوع والعون المعان ، فإن اللعنة تابعة لعذابهم فى الدنيا ، ومتبوعة باللعنة فى الآخرة، والعذاب رفد لها ، وهى رفد له ، ومادة (رفد) تدور على التبع ، أو يكون المراد أن لعنهم لا يزال مترادفا تابعا بعضه لبعض ، فكل لعنة تابعة لشئ

---

(١) نظم الدرر للبقاعى .

(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٥٧ .

(٣) انظر أنوار التنزيل وزادة عليه ٣/ ٦٤ ، إرشاد العقل السليم ٤/٢٣٨ ، روح المعانى ١٢/١٣٥ .

من الخزى (١)» .

ومعنى كلامه رحمه الله ـ أن لعنهم متتابع ، وهذا أشد لعذابهم وأشفى لقلوب المؤمنين ، والفاعل (الرفد) والمرفود صفة ، والمخصوص بالذم محذوف «إيجازا ليكون الذم متوجها لإحدى اللعنتين ، لا على التعيين لأن كليتهما بئس . . . ووصف الرفد بالمرفود ، لأن كلتا اللعنتين مقصودة بالأخرى ، فشبهت كل واحدة بمن أعطى عطاء فهى مرفودة ، وإنما أجرى المرفود على التذكير باعتبار أنه أطلق عليه رفد (٢)» .

وهذا الإعراب على رأى من جوز وصف فاعل (بئس) ، وعلى رأى من لم يجوز ذلك يكون المرفود هو المخصوص بالذم ، وعلى أية حال فالذم متوجه للعنتين، والمراد ذم التابع والمتبوع ، **والمقصد من أسلوب الذم زيادة تفظيع حال فرعون وقومه** ؛ لذا قال الآلوسى : «والآية ظاهرة فى سوء حال فرعون يوم القيامة ، لأنه إذا كان حال الأتباع ما قص الله ـ سبحانه ـ فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد (٣)» .

والحمد لله رب العالمين ، ولا يزال الأسلوب بكرا ، كلما حاولت الاقتراب منه ، والتنعم بنوره ، هذا شأن كلام الله القديم لا تبلى جدته .

---

(١) نظم الدرر ٣/٥٧٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٥٧ .
(٣) روح المعانى ١٢/١٣٥ .

الخاتمة

بعد هذه السياحة فى كتاب الله ، والإبحار بأسلوب المدح والذم فيه ظهر لى كفلق الصبح أن سوق أسلوب المدح والذم فى الذكر الحكيم ، ليس مقصدا تسعى التراكيب إليه من أجل المدح أو الذم ، وإنما استخدم هذا الأسلوب وسيلة لمقاصد أخرى ، فقد أبصرناه ذروة تصعيد القرآن بيانه ، فى نفى الشك عن الصدفة المبدأه ، كما رأيناه مذكورا لقصد إظهار تمام انقياد المؤمنين لأمر الله، كما أبصرناه مسوقا للتحريض على امتثال أمر الله ، والحث على المبادرة لحسن الامتثال . وأغراضا أخرى كثيرة تنوعت بتنوع السياقات .

كما ايقنا ان السياق ذو أثر بالغ فى تنوع التراكيب وتقاربها ، وتحديد المقصد من أسلوب الذم أو المدح ، لابد معه من إبصار السياق ، لأن كل أسلوب فيه خصائص سياقه ، وسيما جريان أسلوبه .

بصفة عامة ابصرنا أن أسلوب المدح يساق فى الطاعات والترغيب فيها ، وأسلوب الذم يساق فى الترهيب من المعاصى .

كما أبصرنا أن مقامات وسياقات (نعم) غير مقامات وسياقات (حسن) كذلك مقام (ساء) غير مقام (بئس) غير مقام (كبر) وغير ذلك كثير مما حاولت ذكره فى تضاعيف البحث .

وبعد فهذا كل الوسع وكل الجهد بذلته فى محاولة فقه هذا الأسلوب ومراميه متخذا توفيق الله معينا ، فإن صح لى فيه قول ، فذاك عطاء لا يوازن، وذلك فضل من الله لا يقادر قدره ، وإن كانت الأخرى فمن عجزى ومن تقصيرى ، وحسبى أننى بذلت وسعى ، واجتهدت طاقتى وخرج عملى على صورتى ، وإنى أعوذ بربى أن أتعمد القول فى كلامه بما لا أعلم ، أو أجترئ على أن اخط بقلمى فى كتابه ما لا أستند فيه على أقوال أهل العلم فأولئك هم السادة والهداة فى فهم بيانه ـ عز وعلا ـ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته .

- المصادر والمراجع -

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط - مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٨هـ.

٢ - أدب الكاتب لابن قتيبة ، ت - على فاعور ط - دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٨م.

٣ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ط بيروت بدون تاريخ .

٤ - أسرار العربية لابن الأنبارى / محمد بهجة البيطار مطبعة الترقى دمشق ١٣٧٧ هـ .

٥ - أساليب بلاغية د. أحمد مطلوب ط الكويت ١٩٨٠ .

٦ - الإشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى ت د. عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر.

٧ - الأطول للعصام المطبعة السلطانية سنة ١٢٨٤ هـ .

٨ - إملاء ما من به الرحمن فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى بهامش الفتوحات الإلهية ط عيسى الحلبى .

٩ - الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ط بيروت ١٤٠٧ هـ .

١٠ - أنوار التنزيل للقاضى البيضاوى بهامش حاشية زاده ط تركيا بدون تاريخ .

١١ - أوضح المسالك لابن هشام ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد ط

المكتبة العصرية بيروت .

١٢ ـ الإيضاح للخطيب القزويني بهامش شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢ هـ .

١٣ ـ البحر المحيط لأبي حيان ط دار الفكر ١٣٩٨ هـ .

١٤ ـ البلاغة فنونها وأفنانها د. فضل حسين عباس ط الأردن ١٤٠٩ هـ دار الفرقان .

١٥ ـ البلاغة الاصطلاحية د. عبده عبد العزيز قلقيلة ط دار الفكر ١٤١١هـ .

١٦ ـ البيان في روائع القرآن د. تمام حسان ط عالم ط عالم الكتب ١٩٩م .

١٧ ـ التبيان للطيبي ت د. هادى عطية مطر الهلالي ط عالم الكتب ١٤٠٧ هـ .

١٨ ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التسولية ١٩٨٤م .

١٩ ـ التسهيل لابن مالك ت/ عبلد الرحمن السيد ومحمد المختون ط دار هجر ١٤١٠هـ .

٢٠ ـ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ط مصطفى الحلبي أعلى مختصر السعد .

٢١ ـ جواهر البلاغة للهاشمي ط دار الكتب العلمية الطبعة السادسة .

٢٢ ـ حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ط تركيا .

٢٣ ـ حاشية عبد الحكيم على المطول مطبعة والدة عباس الأول سنة ١٩٠٧ أعلى فيض الفتاح .

٢٤ ـ حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢ هـ ثانية .

٢٥ ـ خلاصة المعانى للحسن بن عثمان المفتى ت/د. عبد القادر حسين ط الناشرون العرب .
٢٦ ـ دراسات لأسلوب القرآن للشيخ عبد الخالق عضيمة ط دار الحديث .
٢٧ ـ دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى ط وهبة ثانية ١٤٠٨ هـ .
٢٨ ـ روح المعانى للآلوسى ط دار إحياء التراث العربى سنة ١٩٨٥ م .
٢٩ ـ شرح الكافية للرضى ، ت / يوسف حسن عمر نشر جامعة قار يونس ليبيا ١٩٧٨ م .
٣٠ ـ شرح الأشمونى ط عيسى الحلبى .
٣١ ـ الصحاح للجوهرى تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ط بيروت سنة ١٩٥٦ .
٣٢ ـ الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز للعلوى ط دار الكتب العلمية .
٣٣ ـ عدة السالك بهامش أوضح المسالك للشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية بيروت .
٣٤ ـ عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ١٣٤٢ هـ .
٣٥ ـ علوم البلاغة للمراغى ط دار الكتب العلمية ثالثة ١٩٩٣ م .
٣٦ ـ علم المعانى د. عبد العزيز عتيق ط دار النهضة العربية ١٩٨٥ م .
٣٧ ـ فتح القدير للإمام الشوكانى ط دار المعرفة بدون تاريخ .
٣٨ ـ الفتوحات الإلهية للشيخ الجمل ط عيسى الحلبى .
٣٩ ـ فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور د. رجاء عيد ط منشأة المعارف ثانية .

٤٠ - فيض الفتاح على حواشى شرح تلخيص المفتاح للخطيب الشربينى ط مدرسة والده عباس الأول سنة ١٩٠٧ .

٤١ - الكتاب لسيبويه ت/ عبد السلام هارون ط ثالثة دار الكتب العلمية نشر الخانجى ١٤٠٨ هـ .

٤٢ - الكشاف للزمخشرى ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ .

٤٣ - لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

٤٤ - لطائف المعانى فى ضوء النظم القرآنى د. عبد الله هنداوى ط الأمانة ١٤٠٧ هـ .

٤٥ - اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٩ م .

٤٦ - مختار الصحاح ط دار المنار تقديم د. عبد الفتاح البركاوى .

٤٧ - مختصر المعانى لسعد الدين التفتازانى ط أخيرة مصطفى الحلبى .

٤٨ - المصباح لابن مالك لبدرالدين مالكت. حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب بدون تاريخ .

٤٩ - المصباح المنير للفيومى ط المكتبة العلمية .

٥٠ - المطول ط تركيا بدون تاريخ .

٥١ - معانى التراكيب د. عبد الفتاح لاشين ط المطبعة الإسلامية الحديثة .

٥٢ - المعانى فى ضوء أساليب القرآن د. عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف عام ١٩٧٧ م .

٥٣ - المعجم الوسيط ط مجمع اللغة العربية .

٥٤ - مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ، محمد محيى الدين عبد

الحميد ط دار الشام للتراث .

٥٥ ـ مفاتيح الغيب للفخر الرازى ط دار الفكر ثالثة .

٥٦ ـ المفتاح للسكاكى ت/ نعيم زرزور ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ .

٥٧ ـ المفردات للراغب الاصفهانى ت سيد كيلانى ط الحلبى ١٣٨١ هـ.

٥٨ ـ مقاييس اللغة لابن فارس ط دار الجيل ت/ عبد السلام هارون .

٥٩ ـ من أساليب القرآن د. إبراهيم السامرائى ط دار الفرقان ـ الأردن ١٩٨٣ م .

٦٠ ـ من بلاغة النظم القرآنى الجزء الثانى د. عبد العزيز عرفه ط عالم الكتب ١٩٨٤ .

٦١ ـ مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢هـ .

٦٢ ـ النحو الوافى د. عباس حسن ط دار المعارف العاشرة .

٦٣ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ .

٦٤ ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطى الكليات الأزهرية ١٣٢٧هـ .

فهـــرس

الموضوعـــا